سيمائية التواصل بالعين في النص الأدبي الكتابي
إيماء العين في رواية "القمر يولد على الأرض"
لمجيد طوبيا أنموذجًا

د. حنان على طه(*)

"فلحظُ العينِ يقوم المقام المحمود، ويبلغُ المبلَغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعَد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى ... ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطي ... ولكل واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئة اللحظ"(١). (ابن حزم)

المقدمة:

لا شك أن اللغة المنطوقة ترجمان للعقل، ومرآة لأفكاره، وهى وسيلة التواصل العليا الخاصة بالإنسان؛ بها يعبر عن أفكاره، ويرسل رسائله للآخرين، إلاَّ أنها ليست الوسيلة الوحيدة لإجراء هذا التواصل، فهناك لغة غير منطوقة تعبر بها أعضاء الجسد من رأس وما حوى، كالعينين والحاجبين، وغيرهم.

إن لغة الجسد من "اللغات الإيمائية التي يعبر بها الجسد عن مكنوناته وما يريد نسق ومنظومة متناغمة من التواصل غير اللساني الذى قد يأتي منفرداً في

(*) قسم البلاغة والنقد الأدبي – كلية دار العلوم، جامعة المنيا.

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابن حزم – بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٣م، ص ٣٢ "باب الإشارة بالعين"، بتصرف يسير.

سياقات وأحيان وظروف، وقد يأتي مصاحبًا للعلامات اللسانية في أحايين وظروف معينة ".[1]

وتعتبر الرواية من ضمن الفنون التي تستخدم في التواصل بين الفرد ومجتمعه؛ وذلك لأن الروائي نقل واقع مجتمعه من خلال روايته، ولأن الرواية محل الدراسة جاءت معبرة عما عاشه المصريون القدماء من قهر ونهب للثروات من قبل الأعداء، كما أنها ناقلة لهذا الوسط المعيشي المؤلم وهذه المحنة، ثم التاريخ لهذا الواقع عبر الرواية، فالرواية بالإضافة إلى ما ورد فيها من الألفاظ والعبارات، جاءت بأوصاف تدل دلالة مباشرة على سلوك أحد أعضاء الجسم، من حركات وإشارات إلى جانب اللفظ وهو "إيماء العين".

من هذا المنطلق جاءت الفكرة لاختيار موضوع البحث في مظاهر الاتصال البشري، عن طريق إشارات العين، ومن ثم كان عنوان الورقة البحثية "سيمائية التواصل بالعين في النص الأدبي الكتابي إيماء العين في رواية" القمر يولد على الأرض" لمجيد طوبيا أنموذجًا.

ونظرًا لما ورد في الرواية من كثرة الإشارات والرموز الجسمية حددنا " إيماء العين"، واختيارنا للعين من بين أعضاء الجسم؛ لأن العين تكشف ما لا يكشفه أي عضو آخر من أعضاء الجسد، فتكشف ما لا يستطيع المرء إخفاءه من مشاعر وأحاسيس إيجابية كانت أم سلبية.

ومن الدوافع الذى حفزتنا لاختيار هذا الموضوع التعرض للغة الجسد بوصفها ظاهرة مهمة في عملية التواصل، ومحاولة إبراز مظاهرها في النص الروائي المدروس. كما كان الهدف من وراء هذه الدراسة أيضاً الكشف عن بعض الجوانب

(١) سيمائية التواصل بالعين في روايات غالية آل سعيد، عائشة الدرمكي- مجلة نزوى، العدد ٦٧ . يوليو ٢٠١١ .

الفنية الإيحائية التي تشتمل عليها الرواية محل الدراسة، والوقوف على دور حركات الجسد في تبليغ الخطاب الروائي، وخاصة إيماء العين والإشارات والإيماءات المرتبطة بها وأهميتها في عملية التواصل .

وجاء البحث في خطة قوامها مقدمة، ثم مدخل أو تمهيد تناولنا فيه قراءة في مكونات العنوان، ثم مبحثان، المبحث الأول نناقش فيه إيماءة العين" الفعل والوظيفة"، والمبحث الثاني: فلسفة إيماء العين عند مجيد طوبيا.

وننهي البحث بخاتمة تشتمل على أهم ما توصلنا إليه من نتائج، ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع .

واقتضت طبيعة الموضوع اعتمادنا على منهج وصفي تحليلي يستهدف الكشف عن مضامين لغة الجسد، ثم المنهج الإحصائي التحليلي لإحصاء إيماءة العين، وذلك لكشف العلائق التي تربط الإيماءة بالسياقات المختلفة التي وردت فيها .

وكما لا يمكن أن يخلو أي بحث من الصعوبات، فقد واجهت الباحثة بعض الصعوبات، منها عدم وجود دراسة سابقة لهذا العمل الروائي على الإطلاق، فكل ما رصدته الباحثة هو كلمات عن المؤلف، والفترة الزمنية التي كتبت فيها الرواية فقط. أيضاً من الصعوبات ندرة المراجع الأدبية التي تناولت لغة الجسد عامة، وإيماءة العين في الرواية خاصة .

وقد اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع التي أعانتني على هضم الموضوع، من بينها: لغة الجسد لمصطفى وهبه، ومباحث لغوية، والحركة الجسمية في القرآن الكريم لمحمد عبدالكريم، وسيمياء الجسد في القرآن الكريم دراسة تحليلية لوليد محمد السراقبي، وسيمياء التواصل بالعين لعائشة الدرمكي.

سيمائية التواصل بالعين في النص الأدبي الكتابي إيماء العين في رواية القمر يولد على الأرض لمجيد طوبيا أنموذجًا.

يقول ابن حزم :

" فلحظ العين يقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعَد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى... ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطي... ولكل واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئة اللحظ "[1].

**

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، علي بن أحمد بن حزم – بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٣م، ص ٣٢ " باب الإشارة بالعين " بتصرف.

التمهيد

اللغة وسيلة يستطيع أن يستخدمها الإنسان ليقوم بعملية التواصل مع الآخرين، فهي تعبر عن كل ما يمكن أن يتبادر إلى ذهن الإنسان من أفكار ورغبات وعواطف، وبأي شيء كان التعبير سواء بالحركات أو العبارات أو الإشارات أو الرموز.

إن أنظمة التعبير غير اللسانية من الأنظمة الرئيسة التي لاقت اهتماماً كبيراً من قبل السيميائية أو المنهج السيميائي الذي حظي باهتمام كبير من قبل النقاد والباحثين سواء على الصعيد العربي أو الغربي . فقد كانت السيميائية واحدة من بين هذه الدراسات التي اهتمت بدراسة العلامات سواء أكانت لسانية أم غير لسانية.

مع بداية الستينيات من القرن العشرين، ظهر المنهج السيميائي الذي ولع بالبحث في العلامة وتشكلاتها المتنوعة، من أكبر أيقونة يمكن أن تتحدد بشكل معين إلى أصغر وحدة فيها.

وقد استقى هذا المنهج أهم أفكاره ومبادئه العامة من كافة المناهج السابقة عليه" البنيوية – التفكيكية ... إلخ ، ومع ظهوره ظهر لغط كبير حول الاتفاق على تسميته تسمية واحدة، وهذا مرده إلى تشعب مفاهيمه ومصطلحاته واتجاهاته وتطبيقها في مقاربة النصوص بمختلف أشكالها، وكان لها أهمية كبيرة في استنطاق النصوص وتأويلها .

إن بعض السيميائيين كمورس وسيبيوك يدرج "العلامات غير اللسانية التي يستعملها الإنسان والحيوان ضمن العلامات التي يدرسها علم السيمياء، بل إن

البعض من هؤلاء العلماء يذهبون إلى أبعد من ذلك في توسيعهم لمجال السيمياء ليشمل الاتصال ما بين الخلايا الحية [١] ".

وقد وضع أوغسطين مؤسس السيميائية غير اللغوية تصورًا عاما للعلامات، وقسمها إلى قسمين: الأول العلامات الطبيعية، والتي لا تستخدم أصلا لنقل المعنى، ومثالها "الدخان علامة على النار". والثاني: العلامات الاصطناعية، وهي التي يستخدمها الإنسان بقصد التوصيل بشكل متفاعل لإيصال أفكاره ومشاعره ومعتقداته وتصوراته. كما ذهب أوغسطين إلى تفضيل العلامة اللغوية على غير اللغوية، وهذا يرجع إلى أن "كل علامة غير لغوية يمكن الدلالة عليها بالعلامة اللغوية، والعكس غير صحيح.[٢]

وقد وحد أوغسطين بين " نظرية العلامات ونظرية اللغة، وتعرف على جنس العلامات التي تمثل العلامات اللغوية من بينها اللافتات والحركات والإيماءات، وذلك قبل دوسوسير بستة عشر قرنا"[٣].

وكان من أبرز هذه النظريات وأولها نظرية دوسوسير في السيمولوجيا، ونظرية بيرس في السيمو طيقا، كما يرجع الفضل إلى "جون لوك" في أنه أول من لفت الأنظار إلى السيميائية باعتبارها فرعًا من فروع الفلسفة. لكن لا ننكر دور دوسوسير وبيرس في التأسيس للمنهج السيمائي المعاصر .

---

(١) تيارات في السيمياء، عادل فاخوري. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩، ص٨.

(٢) السميولوجيا (الجذور – المفاهيم – الامتدادات ، عبد الرحمن بن إبراهيم المهوس، نشر خاص ٢٠١٦ ، ص٩٥ .

(٣) السيميائية وفلسفة اللغة – أمبرتوايكو– ترجمة أحمد الأصمعي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان– ٢٠٠٥ ، ص ٨٤ .

لقد عرف دوسوسير السيميائية أو علم السيمياء بقوله: "إنه من الممكن أن نتصور علماً يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسماً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي قسماً من علم النفس العام، ونقترح تسميته (Σεμιολογιε) أي علم الدلائل[١].

وبالنظر والتدقيق فيما قاله دوسوسير نجده يتنبأ بوجود "علم الدلائل" أو السيميولوجيا، ويعرفه بأنه علم يهتم بدراسة حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، فدوسوسير بهذا القول يربط السيميولوجيا التي تدرس علم العلامات بالمجتمع .

أما بيرس فيعرف السيميائية بأنها علم قائم بذاته، وجاء تعريفه هذا من خلفيته الفلسفية يقول: "ليس المنطق بمفهومه العام إلّا اسما آخر للسيميوطيقا، والسيميوطيقا نظرية شبه ضرورية أو نظرية شكلية للعلامة[٢]".

رأى بيرس أن محل الموجودات التي تتحرك داخل العالم الإنساني ما هي إلَّا علامات مختلفة، فالعلامات لديه ليست شيئاً ثابتًا، بل هي تتغير داخل هذا العالم مع تغير هذا المجتمع وتغير النشاط الإنساني، لذلك رأى بيرس أن أعظم المخلوقات على وجه البسيطة وهو الإنسان ما هو إلَّا علامة، وبشكل مغاير لنموذج " سوسير" الذي نفى وجود علاقة بين الدال والمدلول في الإشارة اللسانية، وفرق بينهما. وقد أشار إلى الدال باعتباره صورة صوتية مسموعة، أما المدلول

(١) دروس في الألسنية العامة، دي سوسير، ت. صالح القرماوي وآخرون، د.ط ، الدار العربية للكتاب – تونس– ١٩٨٥م، ص ٣٧.

(٢) قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، د.ط ، دار الحكمة، الجزائر، ص ١٧٠.

فهو الصورة الذهنية الناتجة عن الانطباع النفسي الذي يخلقه الصوت عند المستقبل .

وتراه يميز بين الدال والمدلول بقوله: "ليست الإشارة صلة بين شيء واسم، لكن بين مدلول وطراز صوتي دال، وليس النموذج الصوتي صوتًا؛ لأن الصوت محسوس. الطراز الصوتي هو الانطباع النفسي الذي يولده الصوت عند السمع، ولا يمكن تسمية الطراز الصوتي عنصراً ماديًّا إلَّا بمعنى أنه يمثل انطباعات حسية"(١). لقد أوجد دوسوسير علاقة وطيدة بين الدال والمدلول، إذ لا يمكن أن يكون هناك دال في غياب المدلول، وأضاف أن الكلمة الملفوظة هي في المقام الأول .

فالعلامة عند "دوسوسير" وحدة ثنائية المبنى تتكون من جهتين تشبهان وجهي الورقة أو العملة النقدية، ولا يمكن الفصل بينهما، وهذا يعني أن "الدال" أو "المدلول" يشكلان سطر العلامة ووجهيها"(٢) .

أما بيرس فعبر وفسر العلامة من خلال نظرة مغايرة لنظرة دوسوسير، لقد ربطها بالفلسفة من خلال(نظرية المقولات)، فبيرس يدرس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها، وتقوم سيميوطيقا بيرس على المنطق والظاهراتية والرياضيات(٣)، فالإشارة عنده مؤلفة من ثلاثة أجزاء هي: "الممثل"، تأول الإشارة الموجودة . وهذه

(١) أسس السيميائية – دانيال تشاندلر، ت طلال وهبه، رشيد بن مالك، ط المنظمة العربية للترجمة ، لبنان ، ٢٠٠٨ ، ص ٤٦ .

(٢) الاتجاهات الأدبية والنقدية الحديثة، دليل الناقد العام، محمود أحمد العشري، ط٢، ميريت للنشر والمعلومات، مصر، ٢٠٠٣ م، ص ١٠٥ .

(٣) سيمياء – العنوان – بسام قطوس، ط ١ ، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠١م، ص١٢ .

العناصر بدورها تتفرع إلى أقسام أخرى لكل واحد منها خصائص وأهداف يسعى إلى تحقيقها .

إن بيرس في تقسيمه للإشارة اختلف عن تقسيم دوسوسير، فالأول قسمها إلى ثلاثة أقسام هي: "ممثل، الموضوع، المؤول"، في حين اعتبرها الثاني ثنائية تنحصر في"الدال، والمدلول" وما حدث للإشارة من اختلاف في التقسيم عند الاثنين أيضاً طال العلامة، ونجد أنها تنحصر في ثلاثة مصطلحات عند بيرس هي: "الأيقونة – المؤشر– الرمز" ، أما دوسوسير فانحصرت عنده في " الدال، والمدلول" .

إن نظام بيرس السيميائي عبارة عن "مثلث تشكل الإشارة فيه الضلع الأول، وهو الذي له صلة حقيقية بالموضوع الذي يشكل الضلع الثاني المحدد للمعنى. وهذا الضلع الثالث أي المعني هو إشارة كذلك تعود على موضوعها الذي أنتج المعنى"[١] .

(١) ينظر: بحث علم السيمياء في التراث العربي، بلقاس دقة، مجلة التراث العربي، مجلة فضيلة تصدر عن اتحاد كتاب العرب، دمشق العدد ٩١، السنة الثالثة والعشرون، ديسمبر٢٠٠٣ ، رجب ١٤٢٤.

سيميولوجيا التواصل:

يؤكد أنصار هذا الاتجاه على أن السيميولوجيا تشترط توفر عنصرين رئيسين في العملية التواصلية هما: "المرسل – المستقبل"، أي لا بد من استخدام عناصر فعالة في إحداث عملية التأثير والتواصل في الملتقي من قبل المرسل، وذلك باستخدام وسائل تواصلية عن طريق اللغة .

ومن أبرز من أثار هذا الكلام أو هذا الاتجاه، مورسنس – جورج مونان– رولان بارت – أوستين – كراس، وغيرهم العديد، وقد فسر كل منهم العلامة حسب رؤيته ومنهجه، إلَّا أنهم أجمعوا على أن العلامة تتكون من وحدة ثلاثية المبنى (الدال، والمدلول، والقصد) .

لقد انصب اهتمام أصحاب هذا الاتجاه على الوظيفة التواصلية، ولا تختص هذه الوظيفة بالرسالة اللسّانية، وإنما توجد أيضًا في البنيات السيميائية التي تشكلها الحقول غير اللسّانية، غير أن هذا التواصل مشروط بالقصدية، وإرادة المرسل في التأثير على الغير[1]، فالعلامة في عُرف سيميائية التواصل تتشكل من ثلاثة عناصر أساسية هي الدال، والمدلول، والقصد[2]، والاهتمام بالعلامة يكون على الصعيدين اللغوي أو غير اللغوي .

أي أن "سيميائية التواصل" لا تدرس إلَّا الأنظمة التواصلية القصدية التي تؤديها العلامة، وأن الأنظمة الأخرى التي يتحقق معها التواصل لا بد أن تقترن بالمقصد، وإلَّا تفقد وظيفتها الموكلة إليها، ويعتريها الغموض والالتباس، ويمكن

---

(١) معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، عبدالله إبراهيم وآخرون، ط ٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦م ، ص ٨٤ .

(٢) مناهج التحليل السيميائي، فايزة يخلف، ط١، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٢م، ص ٣٥ .

استنتاج أو الوصول إلى نتيجة مفادها أن سيمياء التواصل تقوم على أساسين أو دعامتين مهمتين هما: محور التواصل وما يحدث فيه، ومحور العلامة (أنواعها ومكوناتها ومقصدها)، ومحور العلامة، يقسم على حسب هذا الاتجاه إلى أربعة أشكال (الإشارة – المؤشر – الأيقونة – الرمز)[١] .

محور التواصل:

أ– إما لساني أو غير لساني . (ب) محور العلامة.

(١) معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، ط ١، الدار العربية للعلوم ، ناشرون، الجزائر– ٢٠١٠ م .

السيميائية وتجلياتها في النصوص العربية وأهميتها:

ظهر المنهج السيميائي في المنتج الأدبي العربي عن طريق الترجمة والاطلاع على المنتج الغربي الذي غزا الحياة الأدبية، لذلك انتقلت السيميائية إلى العالم العربي ولقيت اهتماماً كبيراً من قبل طائفة النقاد والمثقفين، واعتمدوا عليها في أبحاثهم ومنتجهم الأدبي، مما جعلها واضحة وجلية للعيان، وبدأ هذا الاهتمام بالسيميائية في دول المغرب العربي أولاً، ثم انتقل إلى سائر البلدان العربية الأخرى، وذلك بنشر المقالات والدراسات والكتب المعنية بهذا الاتجاه، وكان من أبرز من وظَّف هذا المنهج في أعماله:(محمد السرغني- سمير المرزوقى- عواد علي- صلاح فضل- عبد الرحمن بوعلي- محمد البكري- سعيد لنكراد)، أو على شكل تطبيقات مثل ما كتب (محمد مفتاح- عبد الفتاح كليطو – السريغني – وغيرهم)[1].

وتأتي أهمية السيميائية في كونها تعطينا مدلولات ومعاني يمكن أن نكون مدركين لها وعلى علم بها، لكنها في ذات الوقت يغلفها الغموض نتيجة للغة المعبرة عنها، فالسيميائية تكمن أهميتها في كون الإشارات تعتمد عليها في ربط المجتمع بعضه ببعض عن طريق التواصل.

وهذا ما يذكره السرغيني حيث يقول: " ليست السيميائية سوى ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيًّا كان مصدرها لغويًّا أو مؤشريًّا .

(١) اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين ،إبراهيم عبدالعزيز السمري، ط١- دار الآفاق العربية – القاهرة ، ٢٠١١ ، ص ٣٠٥ ، ينظر النص أيضاً كتاب محاضرات في السيميولوجيا لمحمد السرغيني، د صلاح فضل شفرات الانص ، د. محمد عزام وكتابه النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب، ١٩٨٢ .

السيمياء في التراث العربي:

اهتم القدامى بهذا الجانب من علوم اللسانيات منذ ما يزيد عن الألف عام، وليس صحيحاً ما يشاع من أن هذا العلم "السيمياء" وليد العصر الحديث، فقد ربط العرب قديماً بين الدال والمدلول، أو بين ما أسموه بعلم أسرار الحروف أي علم السيمياء، والدليل على ذلك ما ورد عن العلماء العرب في هذا الشأن، وتشهد مؤلفاتهم على صدق ما نقول. ومن بين العلماء الذين اهتموا بعلم السيمياء ابن خلدون، وابن سينا، والفارابي، والغزالي، والحاتمي، والجرجاني، وغيرهم .

إن دراسة النظام الإرشادي في التراث العربي هي دراسة قديمة تمتد إلى فترة دراسة الدرس اللساني، إلَّا أن الأفكار والتأملات السيميائية ظلت في إطار التجربة الذاتية ولم تتجسد في إطار التجربة العملية الموضوعية .

مصطلح السيمياء:

السيمياء لغة:

السيمياء: العلامة، مشتقة من الفعل "سام" الذي هو مقلوب "وَسَمَ"، وهي في الصورة "فِعْلَى"، يدل على ذلك قولهم: سِمَةٌ، فإن أصلها: وِسْمَةٌ، ويقولون: سِيمَى بالقصر، وسيماء بالمد، وسيمياء بزيادة الياء وبالمد، ويقولون: سَوَّمَ ، وسَوَّمَ فرسَهُ، أي: جعل عليه السيمة، وقيل: الخيل المسومة هي التي عليها السيما والسومةُ، وهي العلامةُ[١].

(١) لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر، بيروت ، د. ت ١٢/٣١١، ٣١٢، مادة " السوم ".

وذكر الجوهري السومة بالضم يعنى العلامة[١]، كما ذكر الفيروزآبادي أن السمة: السيمة بالضم، والسيمة والسماء، والسيمياء بالكسر تعني العلامة[٢].

وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها ما ورد في سورة البقرة(٢٧٣) في قوله تعالى: (تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناسَ إلحافاً)، وما جاء في سورة الأعراف آية ٤٦ (وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلا بسيماهم)، وفي نفس السورة آية ٤٨ (ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم)، وفي سورة الفتح آية ٢٩ (سيماهم في وجوههم من أثر السجود)، وفى سورة الرحمن آية ٤١ قوله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام).

وقد وردت لفظ السيمياء كذلك في أشعار العرب، ومنه قول أسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميله حين قاسمه ماله:

غُلاَمٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافعاً لَهُ سيمياءٌ لا تَشُقُّ على البصر[٣]

يتَّضحُ مما سبق أن كلمة سيمياء مشتقة، وهي بمعنى العلامة أو الآية.

السيمياء اصطلاحاً:

أما المعنى الاصطلاحى والذي يتداول كثيراً على ألسنة العلماء فهو أنها: "نظام السمة أو الشبكة من العلاقات النظمية التنظيمية[٤] وفق مجموعة من القواعد اللغوية التي اصطلح عليها .

---

(١) الصحاح في اللغة – الجوهري، تقديم عبدالله العلايلي ، د.ت، دار الحضارة العربية ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٦٣١ .

(٢) القاموس المحيط – الفيروزآبادي – ط ٥ – المطبعة الحسينية القاهرة – مصر – ١٩٩٦م، ص ٦٣ .

(٣) ذكره الجوهري في الصحاح، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٤٠ ، مجلد ٥ ١٩٥٦ وابن منظور في لسان العرب ج ١٢ ، ص ، ٣١ مادة سوم .

(٤) علم السيمياء في التراث العربي، ص٩ .

أو يمكن القول بأن السيمياء: "دراسة الأنماط والأنساق العلامتية غير اللسانية[١].

والعلامة في أصلها قد تكون لسانية "لفظية" وغير لفظية، وعليه فإن السيمياء[٢] هي العلم الذى يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون، ويدرس بالتالي توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية[٣].

وما ذكرناه عن السيميائية قديماً أو وجودها في مؤلفات القدماء يدفعنا للوقوف عند علم الدلالة وهو أحد فروع علم اللغة، ولهذا لا يمكن فصله عن الفروع الأخرى، فعلم الدلالة يحتاج لأداء وظيفته لهذه الفروع، لأنه مرتبط كل الارتباط بالمجتمع وعاداته الاجتماعية، وطرفي الاتصال القائمة بينهم، ويتوجه جزء كبير من اهتمامه للعمليات العضوية.

الدلالة في اللغة والاصطلاح :

الدلالة كما وردت في المعاجم: "ما جعلته للدليل، وقد دله على الطريق يدله دِلالة ودَلالة والفتح أعلى. وأنشد أبو عبيدة: أني امرؤ بالطرق ذو دلالات"[٤].

---

(١) علم الإشارة – السيمولوجيا – بيرجيرو، ت منذر عياش – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ص ٢٣ .

(٢) دروس في السيميائيات – حنون مبارك ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص٢٩ وما بعدها .

(٣) مقدمة كتاب علم الإشارة : السيميولوجيا – مازن الوعر – لبيرجيون ، ص ٩ .

(٤) لسَان العرب ، لابن منظور ، دار صادر للطباعه والنشر، بيروت ، لبنان ، مج ١١ ، حرف اللام، فصل ، الدال (دلل) ، ص ٤٩ .

وجاء في الصحاح للجوهري: "الدليل ما يستدل به والدليل: الدال، وقد دله على الطريق يدلهُ دُلالة ودِلالة ودَلولة والفتح أعلى[١]. أي أن المعنى اللغوي للدلالة، يحمل معنى الهداية والإرشاد والتعليل من أجل الوصول إلى الشيء وبيانه وكشفه.

أما عن المفهوم الاصطلاحي للدلالة فهو دلالة اللفظ على ما اصطلح عليه المفهوم ، وقد نجد اصطلاحاً واحداً يؤدي مفهومين عند فئتين أو أكثر[٢] .

أما الجاحظ فحصر الدلالة في خمسة أشياء، هي:

١- الدلالة اللفظية "دلالة المطابقة".

٢- الإشارة باليد والرأس، وبالعين والحاجب، والمنكب وبالثوب أو السيف .

٣- الدلالة بالخط، أي الكتابة .

٤- الدلالة بالعقد، وهى نوع من العد بأصابع اليدين .

٥- الدلالة النصية، وهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد[٣].

ومن خلال ما سبق نستخلص أن الدلالة تحمل معاني عديدة، منها الفهم والبيان، والتعليل، والحجة، والقصد، وغيرها .

لقد تبين لنا من تعريف الحاحظ للغة أن الدلالة اللغوية نوع من أنواع الدلالة العامة. واللغة كما يعرفها ابن جني: هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، أما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فعلة من لغوت[٤] .

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري ، تحقق أحمد عبدالغفور ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٩ هـ ، ج ٢ فصل الدال " دلل " ص ١١٩٧ .

(٢) المعجم المفصل في الأدب، ت محمد التنوجي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩٩م ، ج١ ، ص ٤٤٢ .

(٣) للبيان والتبين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة . ط ١٩٧٥ ج١، ص٧٦ .

(٤) الخصائص، لأبن جبي ، تحقيق عبدالحكيم بن محمد ، المكتبة التوفيقية ج١ ، ص٤٤ .

ويقول جبور عبدالنور عن اللغة معرفاً بها: "هي مجموع الألفاظ والقواعد التي تتعلق بوسيلة التخاطب والتفاهم بين جماعة معينة من الناس، وهى تعبير عن واقع الفئة الناطقة بها وبنفسيتها وعقليتها، وطبعها ومناخها الاجتماعي والتاريخي(١).

فاللغة باعتبار ما سبق هي مجمل الألفاظ والأساليب الشائع استخدامها بفئة معينة، والإنسان في تواصله مع مجتمعه يستخدم اللغة بجانب وسائل عديدة للتعبير والتواصل، ومن بين هذه الوسائل التعبيرية، لغة الجسد التي لا زالت تستعمل على نطاق واسع يصاحبه لغة الكلام، بل يمكن القول إننا يمكننا الاعتماد عليها، وبدلاً من لغة الكلام في أحايين كثيرة .

"الإشارات الدالة على معان بعينها بجزء من أجزاء الجسد، أي أن الإنسان يتكلم بجسده كما يتكلم بلسانه، وتحمل حركاته وإشاراته دلالات مفهومه، مثل كلمات اللغة تماماً(٢).

ونقصد بالإشارة هنا أو الرمز غير اللغوي عامة "هي كل علامة غير ثابتة الدلالة وقابلة للتفسير والتأويل، أو هي كل رمز سيميائي غير قابل للتقطيع المزدوج على خلاف الرمز اللغوي(٣).

---

(١) المعجم الأدبي، جبور عبدالنور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، ط١ ، ١٩٧٩، ص٢٢٧ .

(٢) جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية ، دراسة دلالية ، محمد محمد داود ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٦م ، ص٧ .

(٣) مبادئ اللسانيات : أندريه مارتيني، ترجمة : أحمد الحمو ، المطبعة الجديدة ، دمشق، ص ١٢٠ .

ومما تقدم يتأكد أن علماء العربية تعرضوا في أبحاثهم للعلامة اللغوية بوصفها أداة التواصل، ونقل المعارف، وتطرقهم لتعدد وسائل أدوات التواصل وتنوعها تبعاً لحاجة البشر واجتماعهم، ولكن هذا لا يعني أنهم عرفوا هذا العلم بصيغته الحالية، ولكننا آثرنا أن نصل بين "الماضي والحاضر، بين الأصالة والمعاصرة؛ لأن العودة إلى التراث ضرورة وجودية، وضرورة معرفية في الوقت نفسه"[1]، وبهذا نكون قد أسهمنا في بناء الحضارة الإنسانية .

**

(١) مدخل إلى السيموطيقيا – مقالات مترجمة ودراسات – سيزا قاسم ونصر حامد أبوزيد – دار إلياس العصرية ، القاهرة .
١٩٨٦ ، ص :٧٣ .

المبحث الاول

إيماءات العين بين الفعل الغريزي والوظيفة التواصلية

لا يقتصر التواصل الإنساني مع الآخرين المتعاملين معه على تحريك اللسان وقرع الشفتين، ذلك أن التواصل تتعاون وسائل كثيرة غير لفظية في تحقيقه، منها تعابير الوجه وما يحويه من عينين وحاجبين وغير ذلك، أو التعبير عن طريق حركة اليد، والذي أسماه الجاحظ " النصبة " في قوله: "وأما النصبة فهي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر عن تلك الدلالات ... وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ...

يقول: "هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن... فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان(١).

فالنصبة تختلف عن الدلالات الأخرى، لكونها علامة لغوية خاصة، فهي لا تتشكل من دال ومدلول، بل هي مدلول فقط، وهي المعاني اللامحدودة، إنها الوجود كله.

فالنصبة أسبق من البيان، وبالتالي فالفكر والمعنى أسبق عند الجاحظ من اللغة أو اللفظ.

ومن هذه المستويات الخمسة: "اللفظ، والخط، والعقد، والإشارة، والنّصبة تمثل الوسائط التعبيرية التي تكشف عن المعاني الخفية وتحقق البيان"، والدلالات هي التي تكشف عن المعاني في الجملة، وعما يكون منها لغواً بهرجًا وساقطاً مطرحاً(٢).

---

(١) البيان والتبين للجاحظ، ج ١ ، ص٧٥ : ٨٣ بتصرف.

(٢) المرجع السابق: ج١ ص٧٦ .

وبهذا نرى أن للتواصل مسلكين اثنين: الأول مسلك لفظي منطوق، والثاني مسلك غير لفظي تشترك فيه الجوارح الأخرى، كالعين والحاجبين وغيرهما، وأن التواصل عن طريق هذه الجوارح أسبق من الكلمات المنطوقة في التواصل، فإيماءات الجسد وتعابيره تنقل بصمت مشاعرك وعواطفك[١].

وقد أشار الجاحظ إلى العلاقة الرابطة بين الإيماءة والبيان، إذ "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخط، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور سيرها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة[٢]، فالإشارة باليدين والرأس من تمام حسن البيان كما يقول الجاحظ: "من تمام حسن البيان باللسان مع الذى يكون مع الإشارة من الدّل والشكل"[٣].

فالكلام مع الإشارة يؤدي إلى رسالة تامة، فالرسائل غير الكلامية "رسائل جانبية بالنسبة للرسائل الشفهية أو المكتوبة.[٤]

فلغة الكلام تحمل الأفكار والمعطيات والتفسيرات، في حين أن لغة الجسد تحمل العواطف والمشاعر، فكأن لغة الإشارة أبين وأكثر تأثيراً من لغة الكلام، حتى أنهم يقولون: وكأن ثمة كلام في بكمهم ولغة في إيماءاتهم[٥].

---

(١) لغة الجسد، جيمس بورغ، ترجمة أميمة الدكاك، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥م ، ص ١٨.
(٢) البيان والتبيين، ص ٧٨.
(٣) السابق، ص١، ص ٧٩
(٤) اللسان والمجتمع . هنرى لوفيغر، ترجمة مصطفى صالح ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ص١٥٩.
(٥) لغة الجسد، ص ١٦: ٢٠ .

إن اللفظ والإيماءة قد يوحيان بالدلالة ذاتها، إلا أن اللفظ لا يمكن أن يستغني عن الإيماءة في كثير من الأحايين، فهي ليست شيئًا اعتباطيًّا بلا قيمة دلالية، بل هي قادرة على توصيل الدلالة التي يوجهها المرسل للمستقبل بشكل أوضح؛ لأنها إشارات في الغالب الأعم عفوية وغير إرادية، يفعلها الإنسان بالفطرة أو بالممارسة والتكرار، وهي كما قلنا تصدر تلقائيًّا، إذ نجد الكثيرين يعتمدون في كلامهم على حركات أيديهم، إضافة إلى تغييرات الوجه بحسب ما يقص من حكايات أو مواقف، أي أن إشارته تسبق عباراته.

وعلى الرغم من أن "الايماءة ليست مرادفًا لأصل لساني، إنما هي جزء من نسق ثقافي واجتماعي، ذلك أن إشارة الإنسان بكفيه يبسطها وقبض الأصابع إليه والتي يريد بها (أقبل) ليست مجرد عنصر إضافي ومكمل للعنصر اللساني، لأنه لا يستطيع اختصارها في معادل لفظي يعوضها ويبلغ عنها بالقوة والمضمون ذاتهما[١].

فإيماءة العين من أكثر الوسائل التواصلية التي يستخدمها الناس بين بعضهم البعض، فالعين مرآة الإنسان، تكشف ما لا يكشفه أي عضو آخر في جسمه مهما جاهد نفسه في إخفاء مشاعره، سواء أكانت هذه المشاعر حبا، أو كرها، أو سخطا، أو رضا، أو فرحا ... إلخ، فالعين تنتج الإيماءات المختلفة والمتنوعة بالاشتراك مع أعضاء أخرى مثل اليد أو الحاجب، وبهما ترسل العديد والعديد من الرسائل الموحية التي قد يعجز الكلام عن توصيلها.

الإيماء لغة:

ينص المعجم على أن الإيماء يعني الإشارة بأعضاء الجسم، مثل الرأس، والكف، والعين، والحاجب.

---

(١) سيميائية التواصل بالعين، ص٤٠.

والإيماء كما يذكر ابن منظور: "أن تومئ برأسك أو بيدك كما يومئ المريض برأسه للركوع والسجود".

ويقول الحاجب: أومأ إليه يومئ، إيماء، ووماً، يمأ، أي أشار.

يقول عمر ابن أبي ربيعة:

أومَت بعينيها من الهودج لولاَكَ في ذا العام لم أحجُج(١)

ونجد الإيماء قد يرتبط بإشارة الرأس خاصة، قال اللَّيث: "تقول العرب أومأ برأسه، أي قال لا.

ومنه أيضاً ما أنشده الأخفش في كتابه الموسوم بالقوافي، فنجده أورد بيتاً لأبي العتاهية ذكر فيه الإيماء.

إذا قل مال المرء قلّ صديقهُ وأومت إليه بالعيوب الأصابع(٢)

وقد ورد مصطلح الإيماء بنفس المعنى اللغوي، فيجعلون من أقسام دلالة الألفاظ دلالة "الإيماء" أو دلالة التنبيه.

وقد ورد مصطلح الإيماء في المصادر العربية القديمة بدلالات متباينة، غير أنه يشير عامة إلى حركة الجسم.

فورد بمعنى الإشارة، مصدر أشار، والأصل فيه شور بمعنى الإيماء، يقال: أشار إليه بيده وشور إليه بيده أي أومأ، ويكون ذلك بالكف والعين والحاجب(٣).

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٤٠، تحقيق فايز محمد، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦، ص٤٨٧.

(٢) لسان العرب، ج١٠، مادة ومأ.

(٣) الصحاح، ج٢، ص ٧٠٣، ابن منظور، ج٧ ص ٢٣٥ – فخر الرازى، ت ٦٠٦ وكتابه "الفراسة"، ابن القيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ وكتابه " الفراسة، ومحمد ابن ابي طالب الأنصاري ت ٧٣٧ هـ، وكتابه السياسة في علم الفراسة .

وتكون الإيماءة حسية ومعنوية، كالتلويح بلفظ إلى لازم معناه، فالإيماء والإشارة مترادفان لغة.

واللغة الإشارية لها دور في التواصل عند القدماء، فقد وضع علماؤنا الأقدمون كتباً مستقلة بذاتها في هذا الباب، وهي كتب في مجملها خاصة بالوجه وما فيه من أعضاء تشترك في عملية التواصل، كالعينين وغيرها.

إيماء العين في القرآن الكريم:

كان لإيماء العين في القرآن الكريم حضور لافت، فلم يركن في التعبير إلى اللغة المنطوقة فحسب، أو الكلام المركب من مقاطع صوتية فحسب، بل كان للتعبير بالحركات والإيماءات الدور الكبير في توصيل المعنى أو الرسالة للملتقي.

يقول الله سبحانه وتعالي: "فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا" (سورة مريم آية ٢٩) .

ويفسر أبو حيان قوله تعالى بأن الإشارة هنا في الآية تكون باليد والعين والثوب والفم(١)، وهذا يتفق مع ما قاله المحدثون عن الإيماءة، بأنها تعبير يربط بين الدال والمدلول عن طريق الحس القائم على فعل التجاوز، كإشارة الإصبع إلى اللوحة(٢).

وأيضاً قوله تعالى: "قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثَلاثَةَ أيّامٍ إلا رَمْزًا" (٣).

---

(١) الإشارات الجسمية– دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، كريم زكي حسام الدين، دار غريب ، القاهرة ٢٠٠١م ، ص ٤٠ .

(٢) علم اللسانيات الحديثة، عبدالقادر عبدالجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢ م، ص ٧٦ .

(٣) سورة آل عمران، آية ٤١.

وقد فسر ابن كثير والقرطبي والزمخشري قوله تعالى: " إِلَّا رمزاً" أي: إِلَّا الإشارة بيد أو رأس، أو عين أو حاجب. وقال ابن عباسي: حبس لسانه وكان لا يستطيع الكلام إِلَّا رمزاً. فالرمز إذن لغة الإشارة والإيحاء .

وكما ذكرنا أن العين هي مرآة الإنسان ومكمن أحاسيسه، ولذلك عبرت العرب عن ذلك بقولها: " رب لحظٍ أتم من لفظ، أو رب عين أتم من لسان[1].

ورد ذكر العين في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها ما ذكرناه سالفا، ومنها ما سوف نذكره الآن، وجاءت العين بصور عدة وجاءت كمطية للمعرفة والاتصال بالكون المعجز وما يضمه من آيات معجزات، ومنها ما كانت العين فيه نائبة عن اللفظ معبرة عن الحال أكثر من المقال .

جاءت بدلالة الأبصار الخاشعة والدلالة الراسخة في قوله تعالى: "خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ" سورة المعارج آية ٤٤. ويطلق الخشوع على الذلة والهوان.

وفي الآية (١٩) من سورة الأحزاب يقول تعالى:" أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ...".

لقد وصف القرآن الكريم صورة ناطقة للعين وما يستقر فيها من خوف ورعب أبلغ من أي منطوق، فالعين تدور من شدة الخوف ويتلاشى الوعي ويتبخر الإدراك؛ فيصبح الشخص الخائف شبيها بذلك الميت المسجى الذي اتسعت حدقتاه، وأخذت مقلته في الدوران، ثم تثبت على اتساعها إلى أن يفارق الحياة .

إيماء العين في التراث الأدبي:

تعد العين من أكثر أعضاء الوجه نصيباً في التواصل غير اللفظي، وأداء لوظيفة الراسل، فقد سدت مسد اللفظ وقامت مقامه، وكانت لها دلالاتها في تراثنا العربي شعره ونثره، فحظيت بالوقوف على دلالة كل حركة فيها، فقد شكلت مع

(١) مجمع الأمثال– للميداني محمد أبو الفضل بلال، دار عيسى الحلبي، ج١ ، ص ١٦٠.

إيماءتها لغة خاصة، إذ تعبر عما يجول في نفس صاحبها إذا أراد أو لم يرد، ولا سيما في باب العشق وما يرتبط به. يقول الشاعر:

العينُ تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بُغض إذا كـــانـــا
والعينُ تنطق والأفـــواهُ صامتـــةٌ حتى ترىٰ من ضمير القلب تبيانا(١)

وقول زهير بن أبي سلمى:

ولا تسأله عمّا سوفَ يُبدِي ولا عن عَيْبِهِ لكَ بالمَغيبِ
مَتى تَكُ في صَديقٍ أوْ عَدُوٍّ تُخَبّرْكَ الوُجُوهُ عنِ القُلوبِ(٢)

ومنه أيضاً:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره وتعرف بالنجوى الحديث المعمسا(٣)

وإيماءة العين وسيلة التواصل تسد مسد العلامات اللسانية إذا تعذر وجودها، وذلك في مواقف خاصة، مثل قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة :

أَشارَت بِطَرفِ العَينِ خِيفَةَ أَهلِها إِشارةَ مَحزُونٍ و لم تتكَلَّمِ
فأَيقَنتُ أنَّ الطَرفَ قد قَالَ مَرحَباً فأَهلاً وسَهلاً بِالحَبيبِ المُتيَّمِ(٤)

ومنه قول الشاعر أبي العتاهية:

يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ إِذا ما هُوَ ماشاهُ
وَلِلقَلبِ عَلى القَلبِ دَليلٌ حينَ يَلقاهُ

---

(١) شعر عبدالله بن معاوية، جمع وتحقيق عبدالحميد الراضي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧١ ص ٨١ والصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق، ط ٢، ١٩٦٧ م ، ص ٤٨ . وينظر أيضاً :البيان والتبيين، ج ١: ص ٧٩ .

(٢) الحيوان – الجاحظ – مكتبة الهلال – بيروت د.ت، ج ١ ، ص ٣٠.

(٣) البيان والتبيين، ج ١ ص ٨٣.

(٤) السابق نفسه.

وَفـي العَينِ غِناً لِلعَيـ نِ أَن تَـنـطِـقَ أَفـواهُ[1]

وهذا ابن حزم يعقد فصلاً مستقلاً في كتابه "طوق الحمامة" في الإلفة والألاف سماه " الإشارة بالعين"، يقول: "فلحظ العين يقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعَد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى ... ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطي ... ولكل واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئة اللحظ "[2].

ولم يكتف بهذا الحديث عن أهمية العين في العملية التواصلية إلَّا أنه قدمها على السمع، ودليل ذلك: "أنك ترى الصوت قبل سماع الصوت، وإن تعمدت إدراكهما معاً، وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدمت العين على السمع"[3].

وأشار عالم النفس سيغموند فرويد إلى أهمية العين في إجراء التواصل مع العالم الخارجي، بل وقدمها على السمع، يقول: "من له عينان يري بهما، وأذنان يسمع بهما، يمكن أن يقنع نفسه أنه كائن حي"[4].

لاقت العين اهتماماً كبيراً من قبل الشعراء والعلماء والنقاد كما رأينا؛ وذلك لأنها الحاسة المهمة والأكثر أثراً في التواصل والكشف عما في النفس.

"والعيون وجوه القلوب وأبوابها التي تبدو فيها أحوال النفس وأسرارها، وذلك لاتصالها بمواضع القلب، وصفائها ورقتها، فاحكم بها لتحقيق صحته.[5]

---

(١) البيان والتبيين: ج ١، ص ٨٣.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابن حزم – بيروت، دار الكتب العلمية ط٣، ٢٠٠٣م، ص٣٢" باب الإشارة بالعين ". بتصرف

(٣) طوق الحمامة، ص ٣١.

(٤) لغة الجسد، ص ١١٩.

(٥) السياسة في الفراسة ، ص ٥٧.

وقد قيل : " ثمة طريق من العين للقلب لا يمر على العقل".[١]

والمتصفح لكتاب العقد الفريد لابن عبدربه يجد أنه خص العين بباب منفرد بالاستدلال على الضمير، باللحاظ وعدها (باب القلب)، فما كان في القلب ظهر في العين"[٢].

ونقل كذلك ابن عبدربه عن الأصمعي فيما حدده بمراتب المعرفة أو الإنكار بواسطة ما تدل عليه العين، وحدد كل مرتبة من ذلك بلفظ محدد خاص بها، فجعل الخوص سمة للعين العارفة، والجحوظ سمة للعين المنكرة، والسحو سمة للعين التي لم تعرف ولم تنكر.

يقول الأصمعي: "إني لأعرف في العين إذا عرفت، وأعرف فيها إذا أنكرت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تنكر، أما إذا عرفت فإنها تخوص، وأما إذا أنكرت فتجحظ، أما إذا لم تعرف ولم تنكر فتسحو"[٣].

واعلم أن العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب، ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأوضحها دلالة، وأوعاها عملا، وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق، وتميز الصفات والمحسوسات، وقد قيل ليس المخبر كالمعاين[٤].

---

(١) لغة الجسد، ص ٣٤.

(٢) العقد الفريد ج٢ ، ص ١١٥.

(٣) العقد الفريد ، ج١، ص ١١٥.

(٤) طوق الحمامة، باب الإشارة بالعين، ص ٣٢.

رواية القمر يولد على الأرض[1]:

ينفتح سرد الكاتب مجيد طوبيا على عوالم متعددة مكاناً وزماناً، ويمتد في تجربة ثرية ومتنوعة رواية وقصة بين استحضار للتاريخ القديم، ومواكبة العصر وتحولاته الفارقة.

لم يكن يعنيه لاستعادة التاريخ في عدد من رواياته مجرد تسجيل لأحداثه، وإنما إعادة بناء سردي تأسيساً على واقعة أو مجموعة من الوقائع التاريخية. و"رواية القمر يولد على الأرض" محل الدراسة، مكونة من حكايتين أو قصتين، القصة الأولى هي صاحبة العنوان، وهى عبارة عن درس تاريخي مختصر عن الفراعنة منذ أحمس وحتى رمسيس الثاني، كما أنها تكشف التفسخ الذي عانت منه مصر القديمة نتيجة هجوم الهكسوس عليها طمعاً في ثرواتها، إضافة إلى تخاذل حاكم منف في حمايتها، ثم النبوءة التي رددها المجذوب بنهاية الهكسوس عند ولادة القمر في الدنيا، ويقصد به أحمس.

أما القصة الثانية "تحقيقات الأيام الستة"، استطاع مجد طوبيا أن يسرد مجموعة من الأحداث المأساوية المليئة بالسخرية، وبقدر ما هي مثيرة للرثاء، بقدر ما تثير الضحك، وقد جمع المؤلف حكايات حقيقية من المجتمع المصري ومزجها مرة بأجواء التاريخ المصري القديم، ومرة بأجواء الخيال المستقبلي، لقد كانت عين الكاتب في اتجاهين، عين على التاريخ، وعين ترصد الواقع[2].

---

(١) الروايه صادرة عن دار الهلال العدد ٥٥٨ ، يونيو ١٩٩٥.

(٢) مجيد طوبيا روائي وأديب مصري، ولد في الخامس والعشرين من مارس سنه ١٩٣٨م بمحافظه المنيا، حاصل على درجه البكالوريوس في الرياضة، والتربية بكلية المعلمين بالقاهره، كما حصل على دبلوم الإخراج المسرحي من معهد السينما بالقاهرة، وحصل على العديد من الجوائز والتكريمات، منها حصوله على وسام العلوم، والفنون من الطبقه =

يتميز سرد طوبيا بعبثيته الساخرة وتهكمه على الأوضاع ورمزياته الواضحة.

سيمياء العنوان:

يعد العنوان المدخل الرئيس أو العتبة الأولى التي تواجه القارئ، وتثير لديه عدة تساؤلات، وخصوصًا بعد أن أصبح القارئ في العصر الحديث منتجًا فاعلاً في استنطاق النص وتوجيهه.

وقد اهتم السيميائيون بالعنوان بوصفه علامة إجرائية مهمة في تقارب النص قصد استقرائه وتأويله، ومن خلاله يتم إثارة المتلقي لكونه " نظاماً سيميائيًّا في أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالته ومحاولة فك شفراته الرامزة(١).

فقد عرفه ليوهوك بأنه: "مجموع العلامات اللسانية (كلمات مفردة، جمل، نص) التي يمكن أن تندرج على رأس نصه لتحدده وتدل على محتواه العام، وتعرف الجمهور بقراءته"(٢).

والناظر إلى معظم الدراسات المعتمدة على مقاربة العنوان يتيقن من الأهمية الكبرى التي يحظى بها العنوان، باعتباره نصا مختزلا ومكثفا ومتميزاً له علاقة مباشرة بالنص الذي وسم به، فالعنوان والنص يشكلان ثنائية؛ "إذ يعد العنوان

=الأولى سنه ١٩٧٩م، وجائزة الدولة التشجيعية في الآداب في نفس العام كما حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب ٢٠١٤م ، كتب العديد من الأعمال الروائية والقصصية منها".

فستوك يصل الى القمر ، وخمس جرائد لم تقرأ، والأيام التالية، الهؤلاء، تغريدة بني حتحوت، الحادثة التي جرت ، القمر يولد على الأرض، والتي نحن بصدد دراستها .

(١) سيمياء العنوان ، بسام قطوس، وزارة الثقافة، عمان ، الأردن ط١ ، ٢٠٠١ م، ص ٣٣ .

(٢) سيميائية الخطاب الشعرى في ديوان مقام البوح للشاعر عبدالله العشى، شادية شقروش ط١، الأردن ، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م ، ص ٣٠ .

مراسلة لغوية تتصل لحظة ميلادها بحبل سري يربطها بالنص لحظة الكتابة والقراءة معاً، فتكون للنص بمثابة الرأس للجسد؛ نظرًا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيرية وجمالية كبساطة العبارة وكثافة الدلالة، وأخرى استراتيجية، إذ يحتل الصدارة في الفضاء النصي للعمل الأدبي(١). وهذا ما دفع بالسيميائية إلى الاهتمام بالعنوان الذى أصبح علماً قائماً بذاته يسمى علم العنونة" τιτραλογιε " .

وقد صنف "جيرارجينت" العنوان ضمن "فضاء النص الموازي"، أو ما يعرف بالمناص في إطار حديثه عن أنماط التعالي النصي τρανστεξτυαλιτε ، والمتمثلة في التناص ، والمناص، والميتانهية، والنص اللاحق، ومهارية النص(٢).

وما يهم – في هذا المقام – من هذه المتعاليات النصية هو نمط المناص الذى يحدده "جينت" بقوله: "إن النمط الثاني παραετεξτε يتكون من علاقة هي عموماً أقل وضوحاً وأكثر بعداً ويقيمها النص في العنوان ، العنوان الصغير، العناوين المشتركة، المدخل الملحق، وأنواع أخرى من الإشارات الكمالية الكتابية أو غيرها التي توفر للنص وسطاً متنوعاً، وفى بعض الأحيان شرحاً رسميا أو شبه رسمي(٣).

وينقل "جميل حمداوي" عن ∀جيرارجينت" عناصر المناص بشكل مفصل، يقول: "إن المقصود بالنص الموازي لدى جينيت هو العنوان الأساسى، العنوان

(١) سيمياء العنوان، ص ٢٧١ .

(٢) انفتاح النص الروائي (النص – السياق) سعيد يقطين ، ط ١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،١٩٨٩ ، ص ٩٦ .

(٣) طروس الأدب على الأدب : جيرارجينت ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط ١ ، ١٩٩٨ ص ١٢٧ .

الفرعي، العناوين الداخلية، المقدمات، الملحقات أو الذيول، التنبيهات، التوطئة، التقديم، الفاتحة، الملاحظات الهامشية تحت الصفحات، النهايات، المنقوشات الكتابية، العبارات التوجيهية، فكرة الكتاب، وهي عبارة توضع في صدر الكتاب وتلخص فكرة المؤلف"(١).

ورواية "**القمر يولد على الأرض**" التي نحن بصدد دراستها وتحليلها سيميائيًّا، وخاصة إيماء العين؛ إذ يشكل هذا العنوان عتبة مهمة في فهم النص؛ لأنه جزء لا يتجزأ من إبداعه الداخلي للرواية، لتطابقه مع ما في النص من أحداث ورؤى وإيماءات ومقاصد، فهو حامل معه جينات تشكله من خلال بؤرة الحدث وطبيعة الشخصية المتحركة داخل النص الروائي، إذ يشكل القمر عند المصري القديم قيمة كبرى، ففي العصور القديمة المتقدمة من العصور القديمة، ارتبط الفراعنة بعبادة القمر، وكان له ثلاثة آلهة، وهم طبقا لأقدميتهم: الإله" إيح" أي إله القمر، ثم "خونسو"، وهو اسم يعني" الهائم أو المسافر"، والإله الثالث المرتبط بالقمر هو الإله "تحوت" مخترع التوقيت القمري.

لقد وفق الكاتب في صياغته للعنوان، حيث بطل القصة الأولى هو "حورس" المخلص الذي كانت على يديه الانتصارات، ونعته بالقمر، ورمز العين عند الفراعنة هي عين حورس (سابقًا) عين القمر أو عين رع، ففي المصرية القديمة أوجات، هي رمز وشعار مصري قديم ذي خصائص تميمية، يستخدم للحماية من الحسد، ومن الأرواح الشريرة، ومن الحيوانات الضارة، ومن المرض.

---

(١) السيميوطيقا والعنونه، جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، مج ٢٥ – ٣٤ ، الكويت، ١٩٩٧، ص ١٠٥ .

وبالتالي أصبح "حورس" إله السماء والعدل والخير، وأصبحت عينه العين الحارسة التي تحمي الإنسان من الشرور والأمراض، واتخذها الفراعنة كتميمة تحمي عروشهم.

أما من الناحية اللغوية فجاء العنوان جملة اسمية، فالاسم هو لفظ يدل على شيء يدرك بالحواس أو العقل، فكلمة "القمر" دلالة على ذلك، والمبتدأ في الحالتين لا يقترن بزمن(١). وجاء المبتدأ "القمر" معرفاً بالألف واللام؛ لأن "المعرفة يدل على شيء واحد معين؛ لأنه يتميز بأوصاف وعلامات لا يشاركه فيها فرد من نوعه(٢)، وعندما يتعرف الاسم يزول عنه الشيوع والإبهام، فيتحدد ويتعين ويصبح دالاً على شيء بعينه.

وقد استخدم الكاتب الفعل المضارع المبني للمجهول "يولد"؛ لأن استعمال الفعل المضارع في التراكيب اللغوية يكتسب دلالات زمنية غير الدلالات التي وضعت له، فالفعل المضارع لا يتقيد بزمن معين عندما يستعمل في سياقات تركيبية مختلفة، كما أننا نستخدم صيغة المبني للمجهول عندما نريد التركيز على الشخص أو الشيء الذى يقع عليه الفعل، وليس على من يقوم بالفعل .

وفي جملة "على الأرض" إشارة أو علامة سيميائية؛ إذ القمر معروف أنه يولد في السماء مع بداية كل شهر قمري، لكننا وجدنا فيه عملية استبدال، حيث جعل المؤلف "القمر" يولد على الأرض، ويقصد به "حورس" الذي سيولد ويأتي من (منف) ليطهر أرض مصر من الهكسوس، فكما أن القمر يضيء عتمة الليل وبخاصة في الأيام التي يصبح فيها مكتملاً، أيضاً سوف يولد من يبدد ظلمة

(١) النحو الوافي، عباس حسن، القاهرة ، دار المعارف ، ج١، ٢٠٠٩، ص ٣٢ : ٣٦.
(٢) السابق : ص ٤٤٣.

الاستبداد والتجبر، وأنه سيخلص الناس من هموهم، ويعيد إليهم حريتهم وبهجتهم وأموالهم المسلوبة.

إن حركة العين وجفنها ومقلتها حين تطرق لا واعية، هي فعل غريزي له وظيفة بيولوجية وليست تواصلية .

يقول بيرس: " لكي يصبح أي شيء إشارة يجب أن يفسر على أنه إشارة بأي شيء يمكن أن يصبح إشارة شرط أن يعتبر أحدنا أنه يعني أمراً، أي يحيل إلى شيء آخر أو ينوب عنه، وتعتبر الأشياء إشارات بطريقة هي إلى حد بعيد غير واعية، وذلك بربطها بمنظومات واصطلاحات مألوفة، هذا الاستخدام الدلالي للإشارات هو الموضوع الأساس في السيميائية(١).

فحركة العين في غياب السياق الخطابي تكون وظيفتها بيولوجية، بينما مع وجود الخطاب تكون الإيماءة التي يقصدها الإنسان حين يقوم بتحريك مقلته أو جفنه أو طرفه وظيفة اتصالية؛ لأنه يريد إيصال رسالة ما إلى شخص آخر، وحينما يقوم هذا الآخر بتأويل دلالاتها وفك شفراتها، تصبح رسالة إشارية أو علامة إشارية .

وهنا لا بد من "إدراك القصدية الإبلاغية التي تكون من خلالها الإيماءة رسالة مشبعة بالدلالات تتجه إلى المتلقي، وتصبح العين حينها قناة تواصلية وليست عضواً بيولوجيًّا يخرج من خناق العضو البيولوجي إلى فضاء النص الأدبي(٢)".

إن الباحث من خلال إيماءة العين يستطيع أن يرسل عدداً لا بأس به من الرسائل غير اللفظية، ويأتي هنا دور المتلقي في فك شفرات هذه الإيماءات،

---

(١) أسس السيميائية، دانيال تشاندلر، ترجمة جلال وهبه وميشيل زكريا، بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت، أكتوبر ٢٠٠٨ م، ص ٣٧٤.

(٢) سيميائية التواصل بالعين، ص ٤٣ .

كونها رسائل غير لسانية – إلى بنياتها الدقيقة ومعانيها الخاصة ودلالاتها المخزونة، فالمستقبل يترجم هذه الإيماءات بما قر عنده في ذهنه من مدلولاتها المعرفية عند مستخدميها، وبما تعارف عليه، وليحدث ذلك لا بد من "تأطير المؤولات الذهنية بأنواعها ضمن هيكل مشكل من بنيات ذهنية محاثثة تتصهر داخل قيود التمثيل المعرفي وقيود التمثيل الأجناسي، بحيث تكون تلك البنى في نفس الوقت نصية وخطابية ومرجعية.(١)

أي أن إيماءة العين تقسم إلى حركات غريزية تعبر عن حاجة ما، وحركات تقليدية تعبر عن الحاجة والرغبة في آن واحد، وحركات قصدية غير تقليدية، وتمثل الإيماءة محور اشتغال هذا النسق باعتبار النسق الإيمائي خطابا بصريا دلاليا يتميز عن غيره من الحقول المعرفية في تركيبته وبنيته.

فالاتصال غير اللفظي أو الإيماءة أو الإشارة إذا توافق مع الرسالة اللفظية وتكامل معها، يؤدي ذلك إلى تفاعل جيد، حيث تصدر الكلمات وتصاحبها الإشارات والإيماءات فتصل الرسالة في أوضح صورة لها. كما يساعد التفاعل من خلال استخدام الإيماءات على ضبط عملية التواصل وتنظيمها في السياق الاتصالي، وذلك عن طريق الإشارة، والإيماءة، ونظرات العين، وتعبير الوجه.

كما يمكن أن نستبدل الرسائل اللفظية برسائل حركية، كأن يقوم الشخص بالإشارة سواء للتأكيد أو للنفي عن طريق الرسائل غير المنطوقة من إشارات وإيماءات، بل أكثر من ذلك أننا يمكن أن نستخدم الإيماءة والإشارة لتفسير

(١) آليات إنتاج النص الروائي– نحو تصور سيميائي– عبداللطيف محفوظ– منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون ، ٢٠٠٨ ، ص ١٦٠ .

"الرسائل اللفظية"، كأن نستعمل الإشارات، والإيماءات، والحركات، أو الصور، لتقريب المعاني وإيضاح الألفاظ(١).

كما تتعاون الإيماءات مع اللغة المنطوقة في تأكيدها، مثل استخدامنا لتعابير الوجه، إضافة إلى العملية التنظيمية "الاتصال غير اللفظي"، بتنظيم وربط التدفق الاتصالي بين أطراف الاتصال، مثل حركة الرأس أو العينين... أو إعطاء إشارة للشخص المقابل ليكمل الحديث، أو يتوقف عنه (٢).

إن العلامات غير اللغوية تشكل جزءًا من بناء الخطاب وإنتاجه وتلقيه، وخصيصة لصيقة بالقدرة الخطابية للمتحاورين.

سيمياء إيماءة العين عند مجيد طوبيا:

إن لكل لغة من اللغتين، المكتوبة والمنطوقة وظائفها في المجتمع، ويمكننا القول بأن الكلام يتمتع حقًّا بميزات تفتقدها عملية التسجيل الكتابي للحدث التبليغي، فالإنسان يمكنه أن يمارس الكلام في الوقت نفسه الذي يباشر فيه عملاً آخر يدويًّا، كما يمكنه أن يتحدث في الظلام، وفي أماكن تختفي فيها إمكانية الكتابة، إن أثر النص المكتوب في الأذهان يختلف عن أثر الكلام المنطوق، فعادة ما نعطي للأول قيمة أكبر وأهم، ومهما تكن خصوبة القناة الكتابية، فإنها لا تستطيع أن تحمل كل ما يدور في خلد الباث؛ ذلك لأنها "بحكم نحوها ومادتها

(١) عبدالرازق مختار – الموقع الإلكتروني .-http:// sam٣.٣arabigate.met/montada f١٧/topic-t٢٧.htm.

(٢) العلاقات العامة والاتصال الإنساني ، صالح خليل أبو إصبع، عمان ، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٨ ، ص ٣٨ .

تختزل وتنتقي وتقنن، وعليه ففعل التواصل مهما يكن مداه لا يترجم كل مقاصد الباث وتمثلاته وتصوراته(١).

وحري بالإشارة هنا أن الكتابة تظل عاجزة – إلى حد ما – عن أن تكون تمثيلاً دقيقاً للكلام، ففضلاً عن عجز الكتابة عن إظهار صورة أمينة للغة المنطوقة هجائيًّا في بعض الأحيان، فإن "الكتابة– بأعرافها المستقرة الثابتة لا تمتلك أدوات تسجيل الجوانب الموضوعية غير اللغوية في الحدث التبليغي أو أثناء عملية التكلم Σπεακινγ، مثل حركات اليد، وتعبيرات الوجه، وإيماءات الرأس، وإشارات الجسم الدالة لغويًّا واجتماعيًّا بوجه عام γενεραλ βοδιλψ γεστυρε، ولا بد أن تدل اللغة المكتوبة على هذه الجوانب غير اللغوية، إن أرادت بالوصف اللفظي الصريح على نحو ما نجد عادة في لغة الرواية (لاحظ هنا إشارات الروائي إلى كيفية حديث الشخصية الروائية)(٢).

ومن نتائج دراسة قامت حول تأثير الكلام في الآخرين، ظهر أن نسبة تأثير الكلمات والعبارات ٧%، وأن لنبرات الصوت ٣٨%، وأن لتعبيرات الجسم الأخرى من عيون ووجه وأيد وجسم ٥٥%، وقيل إن التواصل غير اللغوي يمثل ٦٠%

(١) التواصل – المفاهيم والقنوات، المفاهيم وأشكال التواصل، بناصر البعزاتي ، تنسيق : محمد مفتاح وأحمد أبوحسن ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، ٢٠٠١م، ص٢٧.

(٢) اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة بحث في النظرية د. محمد العبد ، ط١. القاهرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠، ص٣١.

من عملية التواصل، أما التواصل اللغوي فيمثل ٤٠% ، وهناك من بالغ فرفع نسبة الرسائل غير اللفظية إلى ٩٣% من التأثير الكلي للرسالة.(١)

إن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة، إن العلامة ظاهرة ثقافية، فهي تربط الكائن بكل ما يحيط به، أي أنها وسيلة تواصل بين الذات والعالم الخارجي، وعن طريقها يدرك الإنسان هذا العالم. يقول جيرو: "نحن نعيش بين العلامات، وثمة علم دلالة عام يتناول بالتحليل مختلف النشاطات والمعارف الإنسانية.(٢)

وعلى الرغم من أن اللغة المكتوبة تهتم بالكيانات الصوتية اهتماماً كبيراً، إلا أنها لا تهمل الكيانات الحركية، فهي تحاول أن تصف أو تطلق لفظاً للتعبير عن تلك الحركات لتكون الإيماءة في مقابل العلامات اللسانية، وهذا ما وضح جليًّا في نص "القمر يولد على الأرض" لمجيد طوبيا، فهو حين يعبر عن إيماءة العين فهي – على كثرتها – تبدو في نصوصها معبرة عن طرائق الحركة التي أتى بها الباث أو صدرت عنه، وإن كان هذا التعبير غير وصفي وإنما هو مصطلحي من مثل (نظر– التفت– غض الطرف)، فالكاتب في استخدامه هذه الألفاظ التي تختص بها العين، فهي إيماءة لا تصف طريقة النظر، وإنما يغلفها بالدلالة من مثل (تنظر في نفور– نظر وانزعج نظرت ... وكلها ألم ولوعة)، في محاولة من المؤلف لوصف هذه الإيماءة، وإبراز قيمتها التواصلية في النص .

---

(١) التواصل غير المنطوق في ديوان الخنساء ، دراسة في السيميائية العربية لعفاف بنت عمر ابن عبدالله العتيق، مجلة الدراسات اللغوية ، مج١٦ ، العدد الأول ، ربيع الأول ١٤٣٥هـ، يناير ٢٠١٤م ص١٥١ .

(٢) السيمياء ، بييرجيرو ، ترجمة أنطوان أبي زيد ، ط١ ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٤ ، ص٥ .

ومؤلف النص حينما حاول ترجمة الإيماءة الحركية إلى نص مكتوب خانه التوظيف، حيث وجدنا الكثير من الإيماءات الموظفة في النص "تختزل وتضيع وتفقد تلك العلامات الكثير منها، فقد قامت به كوظيفة اتصالية توحي بإيماءات مختلفة، فهو يؤطر الإيماءة بإطار معين متغافلاً عن خصوصية الإيماءة كونها علامة إشارية في مقابل العلامات اللسانية، وبخاصة في الجزء الأول من العمل، فمثلاً جاء التعبير عن "غرير العين" نظرات غامضة[١]، فهذه التعبيرات لا تتعدى العلامات اللسانية البسيطة، إلا أننا نجد في هذه العلامات سياقات مركبة ومتعددة ومتداخلة لو أمعن الكاتب في استخدامها.

ولقد ذكر ابن حزم إن إيماءة العين تؤدي وظائف كثيرة، "فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد ... ، وترعيد الحدقتين من وسط العين إلى الموق فهي وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة.[٢]

والشاعر يقول :

وأومتْ إلى طرفي يقولُ لطرفها بنا فوق ما تلقى فأشجت وَتَّيمت
فلو سُئلتْ ألحاظُنا عن قلوبنا إذن لاشتكتْ مما بها وتبرمت[٣]

---

(١) سيميائية التواصل بالعين، ص٤٤ .

(٢) طوق الحمامة، ص٥٢ .

(٣) الزهرة ، الأصفهاني ، أبوبكر محمد بن داوود ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، ج١ ، ط٢ ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٩٨٥ ، ص١٤٩ ، والبيان والتبيين ص٥٧ .

لكل حركة وهيئة للعين معنى قائم بذاته، فهناك النظرة المحدقة، ومنها ما كان ثاقباً أو فارغاً، والنظرة الجانبية والجدية، والكارهة... وغيرها، ويستطيع الإنسان التعرف على الاختلافات بينها وملاحظتها عند رؤيتها ضمن سياقها الذي ظهرت فيه، فهناك عيون باكية من فرح وأخرى من حزن .

**

المبحث الثاني

تحليل طرائق التعبير بالإيماءة

تنوعت وسائل التعبير بالإيماءة في العمل الروائي "القمر يولد على الأرض" لطوبيا، فتارة جاءت إيماءة العين رشيقة ومعبرة في سياقها وانسيابها داخل النص، وتارة أخرى جاءت مقيدة تخضع للدلالات التي أرادها المؤلف دون ترك مساحة للمتلقي أو فسمه من الإنتاج الدلالي أو التأويلي الذي يصل إليه من السياق، فالمؤلف يعمد إلى إبراز تلك الدلالات والتعبير عنها في علامات لسانية واضحة، متغافلاً أن كثيراً من هذه الإيماءات مشحونة بدلالات اتصالية تظهر في سياقها، وقد لا تحتاج إلى علامات لسانية كاشفة لها أو تؤكدها .

ومن النوع الأول نتوقف عند بعض إيماءات العين التي وظفها المؤلف، وجاءت رشيقة في سياقها، وفي انسيابها داخل النص، مؤدية الدور الوظيفي التواصلي الذي عمد المؤلف إلى توصيل رسالة من خلالها، ومن ذلك "كان في زجاجته الخامسة عندما وجه إليها بعض الكلمات الجارحة، تخاجلت وهربت بنظرها بعيداً إلى المياه لتخفي هزءها منه".(١)

يظهر المؤلف في العبارة السابقة صورة مجازية، وهي مؤشر سيميائي، وذلك في قوله: "هربت بنظرها". لقد أقام المؤلف هنا علامة مشابهة بين العين والإنسان الخائف الذي يهرب للاحتماء، فالعين هنا عبرت عن انزياح استبدالي، أي استبدال الجزء بالكل، فبدلاً من هروب هذه الفتاة فارة من هذا الشخص الانتهازي الذي يريد أن ينهش عرضها، عبرت عن استيائها بإشاحة النظر بعيداً، فالعين وما توحي به لهذه الأحوال قامت مقام الكل، فالعين هي اللسان الناطق بحال صاحبه،

(١) الرواية، ص٧١ . سيميائة التواصل بالعين، ص٤٤ .

وهي " الواجهة الأولى التي يلقاها الآخر، وهي الضمير الذي يعبر عن خلجات النفس ومضمرات الأمور والأحوال، فلهذا اختارها الأدباء لتكون معبرة عن أحوال النفس.(١)

لقد عمق المؤلف من مجرى العين ليجعله كالإنسان الذي يهرب من خطر محدق به، فهو أيقونة استعارية، فالمؤلف أعطى الإيماءة هنا حرية الانطلاق والحركة، بحيث تبدو منفلتة تنساب في سياقها، وتمنح المؤول حرية التأويل .

وها هو الحال في مثل قوله: (ثم رأى حاكم مدنية منف وكبير كهنة معبد الإله بتاح وعدداً من الموظفين يقفون في تأدب ونظرات ذليلة، يتابعون السفينة حتى رست ونزل منها بعض السيتو (الأسيويين)، تقدم زعيمهم بلحيته المستديرة ليتلقي في غطرسة ترحيب كبراء المدينة به ونفاقهم: رمقهم "نشى" في عداء ... سبه ولعنه في سره(٢) .

عبر المؤلف عن بغض "نشى" للأسيويين بتلك النظرة الماقتة، فاستخدم الفعل رمق الذي يوحي بالتدقيق وطول النظر، مما يعطي الإيماءة بحرية الانطلاق والتعبير والحركة، وتفسح المجال أمام المؤول لفسحة التأويل، وقد ساعد على ذلك ما سرده المؤلف من كون النظرة فيها كره وسب ولعنة لهؤلاء، ولكن دون الإفصاح بالكلام، فالعين هنا أدت وظيفة تواصلية إشارية غاية في التعبير عن الإحساس العميق بالكره، فالإيماءة تتسلل تحت سطح الكلام لتكشف ما لا يكشفه أي عضو آخر من أعضاء الجسد، وما لا يستطيع المرء إخفاءه من أحاسيس ومشاعر.

---

(١) سيميائية اللغة ، جوزيف كورتيس ، ترجمة جمال حضري ، مؤسسة مجد الجامعية للدراسات والنشر الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠١٠ ، ص١٤ .

(٢) الرواية، ص ٧ ، ٨ .

أما النوع الثاني من الإيماءات التي وردت في الرواية والتى كبلها المؤلف بطوق من الدلالات، مما جعل الإيماءة تفقد حريتها في إيصال رسالتها للمتلقي، ومنحه فرصة ومساحة من التأمل والتفكير للوصول إلى الدلالات أو التأويلات التي تنتجها، بل نجده يعمد إلى إبراز تلك الدلالات والتعبير عنها في علامات لسانية واضحة، متغافلاً أن كثيراً من هذه الإيماءات مشحونة بدلالات تظهر في سياقها، وقد لا تحتاج إلى علامات لسانية تبرزها أو تؤكدها[١] .

ومن هذه الإيماءات :

"ثم فتحت الباب وولولت ... بدأت البكاء مع مجيء المعزيات في ثياب الحداد، من وقتها وهي تولول وتنظر في نفور إلى الجالسة قرب الباب، والتي كانت منذ عشرين سنة تطمع في المرحوم زوجاً لها[٢] .

فجاءت إيماءة العين هنا في قولها "تنظر في..."، مشحونة بالدلالات المستمدة من السياق العام للنص، ولكن المؤلف حينما أضاف كلمة "نفور" إلى النظر، جعل المؤول غير قادر على الانفلات من طوق هذه الدلالة، ربما لو أعطى له مساحة من حرية التأويل كان يمكن أن يصل إلى دلالة جديدة غير التي قيدها به المؤلف، فربما كان يرفض أحياناً ويختار له دلالات يؤولها، تشبع رغبته في التأويل والتفكيك والتركيب، فقد يؤول المتلقي إيماءة (تنظر في نفور) بأنها دالة على الاستعلاء، أو يمكن أن تدل على الغيرة أو سوء حظها، أو أنها تمقتها لجمالها، ولهذا أوقعت المتوفي في شباكها، وغيرها من الدلالات التي يستطيع أن يؤولها متجاهلاً هذا الحصار الدلالي الذي فرضه المؤلف وضيق به مجال التأويل لدى المتلقي.

---

(١) سيميائية التواصل بالعين، ص٤٤ .

(٢) الرواية، ص٧٤ .

إن إيماء العين في رواية "القمر يولد على الأرض"، يشكل تنويعاً من حيث اللفظ ، وإن جاء بعضها بكثافة ملحوظة عن غيرها من الإيماءات، فتكرر لفظ "نظر" أكثر من ثماني عشرة مرة، كما جاء لفظ "رأى" أربع عشرة مرة، إضافة إلى ورود ألفاظ أخرى مثل: التفت، رمق، لاحظ، أومأ، لمح في أحايين قليلة لا تتعدى الثلاث مرات لكل منها .

"التفت – فرأى رجلاً متجهاً يأمره بالابتعاد، ثم رأى حاكم مدينة منف وكبير كهنة معبد الإله بتاح، وعدداً من الموظفين يقفون في تأدب ونظرات ذليلة"(١).

هنا نجد تواترا للحدث، فقد أورد المؤلف في هذه العبارة أكثر من فعل للرؤية مثل (التفت – رأى – نظر)، لكنها تختلف من حيث الفعل الوظيفي لها.

ومنها أيضاً: "ثم شاهدوا ما رأت، فوجموا يحملقون في ذهول"(٢) .

كما ذكرنا أن هناك فارقا بين الرؤية، والمشاهدة، والنظر، إن "رأى – نظر" فعلان حسيان وعقليان بينهما فارق جوهري هو: أن النظر فعل إرادي، والرؤية فعل غير إرادي، والنظر فعل بمنزله المقدمة الضرورية للرؤية العقلية، ولا يمكن أن يكون هناك رؤية عقلية بدون نظر عملي.

أيضاً الرؤية الحسية تسبق النظر الحسي، ولكن البصر هو أقوى وأعمق وأشمل من النظر، لقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: ٣٠].

لقد أعطى المؤلف أهمية كبرى للفظ "نظر، ورأى" اللذين تكررا أكثر من أربع عشرة مرة، ولهذه الإيماءات خصوصية في رواية القمر يولد على الأرض، وهذا الاستخدام من قبل المؤلف يجعل الإيماءة تعبر عن ذات النظر كما ورد في

(١) الرواية، ص٧ .

(٢) الرواية، ص٧١

(نظر– ينظر– ورأى– ورأوا – ويرى) في إطلاقها العام، فهي المحددة من حيث كينونتها، ومطلقة من حيث دلالاتها، مما يستدعي من المؤلف التدخل لكبح جماحها وتطويقها بالدلالة التي تسهم في إيضاحها، وإبراز كيان الحركة للإيماءة.(١)

وقد يستخدم المؤلف الفعل (نظر) أو (رأى) في سياقات غير دالة على النظر "إيماء العين" التي يراد لها التواصل الإبلاغي، وإنما قد يكون بمعان أخرى، مثلما ورد في "اتخذ لنفسك زوجة وأنت شاب يافع، ولا تمثل معها دور الرئيس في بيتها، خاصة إذا كانت في عملها، وإنها لتكون سعيدة إذا كانت يدك تعاونها. والربان بعيد النظر لن تغرق سفينته(٢).

فالإيماءة هنا قد تدل على امتلاك الخبرة وحسن التصرف في الأوقات الصعبة، وليس تدل على الإيماءة التواصلية .

ومنها أيضاً قوله: "كان موسى يحب أمه ويحترمها، فهي رغم جهلها بالقراءة حليمة صبورة ذات نظرة بأمور الحياة(٣).

فالنظرة الثاقبة دلالة على حسن التوقع ووضع الأمور في نصابها الصحيح، أما عن الوظيفة الإشارية أو التواصلية فهي لا تعني ذلك .

إيماء العين في امتداده خارجاً:

العين مرآة الروح، وانعكاس لما يجيش في النفس من مشاعر، ويؤكد عدد من الباحثين أن الأسس الحقيقة للتواصل تنشأ من الاتصال العيني مع شخص آخر،

(١) سيمياء التواصل بالعين، ص ٤٥ .

(٢) الرواية، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٣) الرواية، ص ٥٧ .

فالعين من أكثر الأعضاء قدرة على نقل ما يدور في نفس الشخص من مشاعر وانفعالات.

يرى بيرس: أن مقدار الراحة والانزعاج عند التعامل مع الآخر قد يكون مرده الاتصال العيني، وهذا يعتمد على حجم العين والفترة الزمنية للنظرة، معتمدة على العامل النفسي، "فإذا كان الشخص يحبك فسينظر إليك كثيراً، أما إذا كان يحبك كثيراً فسوف ينظر إليك أكثر من ثلاث نظرات في الثانية الواحدة[١].

إن العين لا تتفصل عن ذات الأشكال والصور إلا إذا انفصلت عن الرؤية وبات المشهد مجرد سواد، وعلى ذلك فإنها قادرة على تشكيل الحقل اللغوي والصوري برمته، فالجسد يتواجد خارج الأشياء، من حيث "إن هناك حجماً إنسانيًّا بتعبير كرماص يقوم بملء الجسد/الشيء بأبعاد تتأكد به عن الطبيعة كعنصر منفعل تستوعب القيم، ولكنه لا يستطيع إنتاجها، فإدراك الأشياء يمر عبر وعي مركزي يفصل بين الجسد/الشيء، وبين الجسد/الحجم الإنساني[٢].

هي صانعة ومشكلة له، لديها القدرة على وضع حدوده وإطاره الخارجي الذي سيخطط بعد ذلك لمجرى أحداث النص[٣].

ففي سياق بعض الأحداث في الرواية مثل: "في زحام الناس وربكتهم، اقترب فتى من ابنة عمه – أومأ لها فتسللت تتبعه، لاحظ خبير... أن قميص الفتى

---

(١) لغة الجسد ، المعنى الخفي وراء الحركات والإيماءات والتعبيرات المختلفة لمحدثك ، بيرس، ترجمة كريم محمد ، الحرية للنشر والتوزيع ، القاهرة . د.ت، ص ٧٧ .

(٢) السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بن إد، دار الحوار للنشر والتوزيع – سوريا – دمشق ٢٠١٢ ، ص ١٢٥ .

(٣) سيميائية التواصل بالعين، ص ٤٦ .

أبيض بخطوط زرقاء، وأن ثوب الفتاة أحمر بورد أصفر، وإنهما يهرولان مسرعين".

سبقاه إلى المدينة وجدا شوارعها خالية، جذبها الفتى يقبلها، قبلة سريعة ثم أخرى عنيفة مثل بطلي فيلم في نهايته، ثم قبلات مهوسة في المنزل رقم ٦٧، تطور الأمر وضاع الحرص. بعد حين لحقت به شاحبة زائغة البصر[١].

نجد هنا أن إيماءه العين في "أومأ" والتي تصدر من الباث والمتلقي على السواء، تشكل إطار المشهد وحدوده الذي تدور في داخله وضمنه الأحداث، فهي بذلك تؤطر حدود النص التواصلي وترسم خطوات الحدث القادم وتشكله[٢].

وباعتبار أن اللحظة الأولى التي تنشأ فيها الإيماءة هي لحظة تشكل الوعي لها، إلا أنها تخضع للعديد من شروط الوجود، ومن بين هذه الشروط خصوصيات اللحظة الزمانية والمكانية، و"خصوصيات الزمانية النفسية والاستعدادات الإدراكية للمنتج "[٣] الإيمائي، وهذه الخصوصيات الزمانية والمكانية في رواية "القمر يولد على الأرض" تعبر عن لحظة تشكل وإطلاق لإيماءة العين، حيث تغدو الإيماءة جزءاً لا ينفصم عن السياق المقالي للنص.

ومنها أيضاً: "شد نظرها وأنظارهن ذلك الرجل الذي وقف أمام الباب المفتوح مرتبكاً وفي عينيه سيء الأنباء ، بعد جهد باح بالنبأ الرهيب**!**[٤].

---

(١) الراوية، ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) سيمياء التواصل بالعين، ص ٤٦ .

(٣) آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، عبداللطيف محفوظ، الدار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، ط١ ، ٢٠٠٨، ص ١٦١ .

(٤) الرواية، ص ٨٠ .

"شد نظرها وأنظارهن"، حيث تشكل هذه الإيماءة جزءاً مهما في سياق النص، وفق الكاتب في وضع هذه الإيماءة في إطارها اللغوي وسياق زماني ومكاني، بل وسياق حالة نفسية، ففي الوقت الذي كانت نساء القرية يقمن بواجب العزاء في زوج جارتهم جاءهم من يخبرهم أن أزواجهن لقين نفس المصير " فازداد المشهد تأزماً وسوداوية"، لقد تعلقت نظراتهن بهذا الواقف على عتبة المنزل وهو يلقي عليهن بهذا الخبر المأساوي، لقد عبرت الإيماءة في النص عن محور المشهد والتي يدور حولها الحدث ويتشكل من خلالها .

مثال آخر: "انقلب الحال ورأى السماء تأتي من تحته غارقة في ضوء ساطع، ولمح الغربان تتشتت مذعورة، توهجت الشمس في عينيه فأغمضهما، شعر بصدمة المياه لرأسه وجسده، عم الظلام وضغطته المياه ، انقلب الزورق وتفسخت أوصاله !"[١].

شكلت إيماءة "أغمض عينه"، الواردة في العبارة جزءًا مهما من سياق النص، حيث وظفها الكاتب في إطارها اللغوي وسياقه الزمني والمكاني، كي تعبر عن الحالة النفسية التي عايشها هذا الشخص عندما انقلب المركب على عقبه في النيل .

جاءت الإيماءة معبرة عن الجو النفسي والمعاناة التي يكابدها من وضعه في مثل هذا الموقف، بل إن محور المشهد يتمركز حولها .

القيد والانقلاب الدلالي لإيماء العين:

من خلال قراءة الرواية، وحصر المعجم الخاص بإيماءة العين عند مجيد طوبيا، لفت انتباهنا أن إيماءة العين عند الكاتب تنوعت تنوعاً كبيراً لتشمل جميع العمل الروائي، وجاء "النظر"، "والرؤية" محور إيماء العين وأساس تشكلها من

(١) الرواية، ص ٧٧ .

حيث الدلالات والتنويعات، فقد طغت في استخدامها على باقي الأنواع الأخرى الواردة في النص، وهى في ذلك إيماءة "النظر – ورأى"، تمثل مساحات التصوير التشخيصي لمكونات الجسد والنص في حدوده التصويرية العامة، منفتحة على مجمل القيم التمثيلية للتشكل النصي للجسد، مانحة إياه إمكانيات الأداء الجمالي للخطاب الثقافي بشتى أجناسه التأليفية وأنواعه التعبيرية، وبمجمل أنماطه في الإحالة الذهنية على مراجع الحس والخيال"(١).

فالفعل "نظر" عند تشكله الدلالي ليعبر عن إيماءة العين– يمكن أن ينقلب من القيد الدلالي الذي يفيد منه في السياق اللغوي إلى دلالات جديدة من قبل المؤول، لأن المؤول يخضع هذه الإيماءات لوجهة نظره وقناعته الشخصية، فهو لا يريد أن يلغي وجهة نظره ورأيه عند تفكيك الخطاب ولإثبات ذلك سنعمد إلى تحليل بعض النماذج لهذه الإيماءات، من ذلك ما ورد في أحد السياقات:

"جفف الجالس أمامه العرق من حول عنقه، أفلتت منه نظرة ازدراء إلى النعش، ولم يقل شيئاً كعادته لا للناس ولا لنفسه، بينما قطع الرجل القصير الذي يشبه دب السرك تثاؤبه، أخبره والده قديماً أن روح الإنسان قد تخرج مع التثاؤب، لهذا يضع المتثائب كفه أمام فمه"(٢).

فالتعبير (أفلتت منه نظرة ازدراء)، يجعل النظرة مقيدة بدلالة الازدراء كما أوردها الكاتب في العبارة، والتي تشكل بالنسبة للمؤول السياق التخيلي لحالة الجسد لحظة النظر، لقد وضع المؤلف صورة واحدة تخيلية لا انفكاك منها، ولم يترك للمؤول حرية التأويل التي يمكن أن يصل إليها بنفسه من فعل القراءة للجملة

(١) ترويض الحكاية (بصدد قراءة التراث السردي)، لشرف الدين ماجدولين ، نشر الدار العربية للعلوم ناشرون – الجزائر، ٢٠٠٧ ، ص٧٥ .

(٢) الرواية، ص ٧٣ .

أو للعبارة، وعلى الرغم من ذلك فإن المؤول لن يرضخ لسلسلة هذا القيد الدلالي الذي فرضه عليه الباث، بل يمكن أن ينتج مؤولات أخرى خارجة عن إطار "الازدراء" ومن هذه المؤولات.

- الخوف والرهبة.
- الدهشة.
- العظة.
- الشماتة.
- الاعتراض – الاستغراب نظر الفتور.

وهذه المؤولات جميعاً تصلح لأن تكون مؤولات نهائية لمناسبتها للسياق المقامي الذي وقعت فيه الإيماءة، ليس هذا فحسب بل يمكن للمؤول أن يدحض دلالة الازدراء عن الإيماءة استناداً إلى السياق المقالي، لننظر إلى ما تقدمها من كلام، فحينما "تحركت الأفواه تذكروا محاسن الرحل بأنه كان طيباً يساعد المحتاجين، أقبلت عليه الدنيا لأنه أدبر عنها، لكن الجالس عند المقدمة قال في سره، هذا الفظ العسوف أراح واستراح برحيله"(١).

لذلك يمكن أن تؤول الإيماءة تأويلات كثيرة لمناسبتها كما ذكرنا للسياق المقامي التي وقعت فيه لكل ما ذكر عنه.

ففي الوقت الذي يتذاكر المشيعون فيه محاسن الراحل؛ لأنه حجب عنهم في حياته شخصيته الحقيقة والتي خبرها جيداً الجالس أمام النعش، لذلك عبرت إيماءته للنعش عن موقفه من هذا الشخص، داحضاً بهذه النظرة كل هذه الإطراءات التي حظي بها في حياته وبعد مماته.

ولنأخذ شاهداً آخر لهذا الانقلاب الدلالي للإيماءة وهو السياق عند التأويل:

---

(١) الرواية، ص ٧٣ .

"في كل إقليم حط فيه المبعوث ساعة الغروب، أكل وشرب وأخذ الهدايا والزاد ... بمجرد وصوله إلى ثغر طيبة الخالدة، أخذه الحراس إلى حضرة الفرعون، سفن رع، مارين إلى جوار بحيرة عجول النهر، حيث ظل يرقبها بنظرات ماجنة"(١).

إن السياق المقامي الذي فرضه المؤلف لوظيفة إيماءة العين هنا هي "النظرة الماجنة"، لكن في المقابل يحق للمؤول أن يخرج عن هذه الدلالة إلى استنطاق الجملة، وتأويل دلالات جديدة للإيماءة، منها:

- ازدراء.
- اشمئزاز.
- تهكم.
- سخرية.

ومثال آخر: "حدجه المحافظ بنظرة متوعدة، ثم رأى أن الكياسة من حسن السياسة، فأعلن أن نفقات التشييع وسرادق العزاء على نفقة المحافظ، غير أن هذا السخاء لم يغرهم وانصرفوا من حوله"(٢) .

قيدت الإيماءة هنا أيضاً بدلالة محددة لا متسع فيها لإعمال الخيال وإطلاقه، فعبر الكاتب عن نظرة العتاب لمن اعترض على سياسة المحافظ في إدارة ملف قضية " الغرقى في النيل نتيجة تهالك المركب". فجعل (الإيماءة متوعدة)، ولكن مع هذا القيد يمكن للمؤول أن يؤول كما يحلو له، ويكون مُناسباً للسياق، وعليه يمكن أن تؤول الإيماءة إلى:

- ازدراء .

---

(١) الرواية، ص١٣. بتصرف

(٢) الرواية، ص٨٦ .

- كره .
- تعالي .
- استياء .

ومن خلال استعراضنا لهذه النماذج، يمكننا القول: "إن إيماءة العين التي وظفها الكاتب بكثرة في روايته جاءت الغلبة فيها الـ" نظر"، وهى "إيماءة مقيدة في سياقها ومنفلتة في انطلاقها الدلالي، إذ يمكن للمؤول أن يؤولها إلى مؤولات متعددة ضمن مرجعيتها الدلالية والسياقية"[١] ، تليها "رأى".

فالعين معين لا ينضب للتعبيرية، والعضو الأكثر ثراء في الإشارية، ومع أن اللغة الإشارية محدودة بالمقارنة مع الخطاب اللغوي "فإن لغة العين تقول في التواصل ما لا تقوله اللغة[٢] العادية، ويكون هذا بفعل العلاقات التي قد ينسجها الجسد مع وحدات أخرى من البعد الدلالي نفسه[٣]. لأن العين تمثل من الجسد علامة سيميائية ظاهرة تكشف عن المضمر الكامن في أغوار النص.

والخلاصة أنه يشترط في فهم أية علاقة بصرية وجود معرفة سابقة بها، لكي يستحضر النموذج الخاص بها في الذهن، ثم يحصل بعد ذلك الإدراك ويتحقق التواصل، ولكل علامة تواصلية جانبان: أحدهما أيقوني، وتمثله الصورة الحقيقية كما هي موجودة في الواقع، والآخر تشكيلي يستند إلى ما تزيده الثقافة الخاصة

---

(١) سيمياء تواصل العين، ص٤٧ .

(٢) الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، فريد الزاهي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب– ، بيروت –لبنان ١٩٩٩م، ص١٠٤.

(٣) سيمولوجية الشخصيات السردية – سعيد بنكراد، رواية ١٠ الشراع والعاصفة لحنامينه نموذجاً، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ٢٠٠٣م. ص٨٠

بالمجتمع والفرد وما يرتبط بالأشكال والألوان، والأحجام، فكل علامة تعرف على نحو نسبي، وليس مطلقا، وفقط من خلال موضعها في السياق(١).

فالعلامة البصرية تستند بصورة أساسية على حاسة البصر "العين"، فاللغة البصرية اشتغالاتها وهي اللغة التي تستعمل كلا من الصورة والنص(٢).

ولهذا تعد السيميائيات البصرية جزءًا من السيمياء العامة، إلا أنها تعنى بالصور البصرية مع نصوصها الموازية والمجاورة، ورصد بعدها التواصلي والسياقي والوظيفي، فضلا عن التشديد على البعد المعرفي والبعد التداولي(٣)، فالعين "ترى عبر وسائط الثقافة والخيال والمعتقدات(٤)".

* *

(١) مداخل لنظرية اللغة، لويس هيلمسليف، ترجمة يوسف إسكندر، مراجعة حسن كاظم، الناشر دراسات فكرية، جامعة الكوفة، ط٢٠١٨، ص٣٩.

(٢) أوديسا الرمز، دراسات في "الكون السيميائي"، سمير الشيخ، دار الرافدين، ط١ ، ٢٠١٨، ص٣٧.

(٣) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، إفريقيا الشرق، ط١، ٢٠١٤، ص ٩٢، ٩٣.

(٤) الصورة، المكونات والتأويل، لغي غويتي، ترجمة سعيد بنكراد، ط١، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢.

الخاتمــة

إذا كانت اللغة هي وسيلة يستطيع أن يستخدمها الإنسان ليقوم بعملية التواصل مع الآخرين، فهي تعبر عن كل ما يتبادر إلى ذهن الإنسان من أفكار ورغبات وعواطف أيضا، وكما أن التواصل اللفظي يقرأ بحروف اللغة وكلماتها، فإن الجسد كذلك يقرأ من خلال التعابير والإيماءات التي يتخذها، والتي تعكس ما يفكر أو يشعر به الإنسان، وهذه التعابير بعضها فطري تلقائي، وآخر يكتسب بالتعلم والملاحظة، فالإيماءات الفطرية هي التي يتعلمها الإنسان قبل تعلمه واكتسابه للّغة الكلامية، وقد توصلنا إلى حقائق ونتائج لا يمكن غض الطرف عنها، وهي:

- للتواصل بغير اللغة المنطوقة أشكال عديدة تلتقي جميعها في أنها صادرة من الجسد أو ما يتخذه الجسد من مظهر، وأدوات، وحيز، ولكل عضو حركاته وإيماءاته الحمالة لمعان مخصوصة، وغالبا ما تتضافر مجموعة من الإيماءات والحركات لتعطي دلالات تجيء برسائل يوجهها هذا الجسد، وهو بذلك يكون جسدا مرسلا لتلكم الإيماءات والحركات. كما أنها تؤدي وظيفة أخرى وهي أنها تساعد المستقبل في تشكيل انطباع عام وكلي عن ذلك المرسل، ويكون للإيماءات والحركات أهداف يريد الباث تحقيقها من وراء هذه الإيماءات وهي (الإقناع– التعمية– الخداع)، وترتبط هذه الممارسات بالإحساس الداخلي والحالة العاطفية للباث.
- يمكن أن تؤدي الرسائل اللفظية رسائل واضحة وصريحة لكن الرسائل الإيمائية، والحركات تتفوق عليها في نقل المعلومات، فالحركات هي الإشارات والرموز التي تصدر عن الشخص بقصد أو بغير قصد، وتعد العين من أكثر الأعضاء قدرة على نقل ما يدور في نفس الشخص من مشاعر وعواطف وانفعالات ، فلكل حركة وهيئة للعين معنى قائم بذاته .

- استطاع المؤلف أن ينهج منهجا تعبيريًّا زاوج من خلاله بين الأحداث التاريخية والراهنة، إذ جسد ذلك من خلال زحزحة الموروث بكل تفاصيله مع إيجاد علاقة مع ما يحدث خاصة مع التعتيم قدر الإمكان على رموزه السيميائية.
- برهن مجيد طوبيا على صلة الراهن والموروث التاريخي بطريقة فاعلة اعتمد الخبر التاريخي مفتاحا لهذه الحركة.
- نجح المؤلف في استخدامه لإيماءة العين ليجسد الوعي الجمالي للغة بما يتناسب مع حركة الفاعل الذات، مجسدا ذلك في إشارات واضحة.
- استنهض العديد من الإشارات الدالة على الترابط التيمي بين الحاضر والماضي، ورمز للكثير من وصلات ذلك الارتباط .
- المعجم اللغوي لاستعمال إيماءة العين عند مجيد طوبيا تنوع تنوعا كبيرا، فقد جاء التعبير بإيماءة العين عبر ألفاظ كثيرة منها (نظر – رأى) فقد وردتا أكثر من اثنتي عشرة مرة أو يزيد، كما وردت (التفت – رمق – شاهد) ما يربو على أربع مرات في الرواية. وجدير بالذكر أن (البصر) ورد مرة واحدة في النص، والبصر هو أقوى وأدق من النظر والرؤية والمشاهدة.
- يعتبر الجسد نسقا تواصليا له خطاب خاص إيمائي إشاري يلعب دورا مهما في تبليغ الخطاب .
- إيماءة العين في الرواية جاءت دالة على مدلولات متعددة بتعدد سياقاتها.
- تتنوع أيضا الإيماءة في الإطلاق الدلالي في السياق المقالي للنص، فتارة تأتي مقيدة دلاليا، وتارة أخرى للانفلات التأويلي.
- عمد الكاتب في روايته إلى مجاوزة اللغة واستغلال أبعادها الإيحائية والانزياحية، وهو ما جعل المتن الروائي مليئا بالإيماءات البصرية.
- وفق الكاتب في صياغته للعنوان، فجعل دلالة القمر عند القدماء وظيفة سيميائية "عين حورس"، ولهذه العين خصائص تميمية.

قائمة بالمصادر والمراجع

١. رواية القمر يولد على الأرض "مجيد طوبيا"، روايات دار الهلال، العدد ٥٥٨، يونية ١٩٩٥، محرم ١٤١٦.
٢. السيمولجيا "الجذور والمفاهيم" – الامتدادات – عبدالرحمن بن إبراهيم المهوسى ، نشر خاص، ٢٠١٦.
٣. السيميائية وفلسفة اللغة– لأمبرتو إيكو، ترجمة أحمد الأصمعي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، نوفمبر، ٢٠٠٥م.
٤. أسس السيميائية ، دانيال تشاندلر، ترجمة طلال وهبه، ط١، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ٢٠٠٨م.
٥. اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين، إبراهيم عبد العزيز السمري، آفاق العربية ، القاهرة ٢٠١١م.
٦. العلاماتية وعلم النص، منذر العياشي، المركز الثقافي العربي، د.ت .
٧. الاتجاهات الأدبية والنقدية الحديثة. دليل الناقد العام، محمود أحمد العشري، ط٢، ميريت للنشر والمعلومات، مصر ٢٠٠٣م.
٨. الصحاح في اللغة، الجوهري، تقديم عبدالله العلايلي، دار الحضارة العربية ، بيروت، ١٩٧٨م.
٩. القاموس المحيط – الفيروز آبادي – ط٥، المطبعة الحسينية، القاهرة، مصر – ١٩٩٦م.
١٠. المعجم المفصل في الأدب، محمد التنوجي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.
١١. البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٢. الخصائص لابن جني، تحقيق عبدالحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، ح١، د.ن.
١٣. المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
١٤. مدخل إلى السيموطيقا- مقالات مترجمة ودراسات، سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
١٥. اللسان والمجتمع، هنري لوفيغر، ترجمة مصطفى صالح، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣م.
١٦. طوق الحمامة في الألفة والألاف – علي بن أحمد بن حزم- ط٣، بيروت – دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.
١٧. تيارات في السيمياء، عادل فاخوري – دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.
١٨. دروس في الألسنية العامة، لدوسوسير، ترجمة صالح القرماوي وآخرون، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٥م.
١٩. قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، رشيد بن مالك، د.ن، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٠م.
٢٠. سيمياء العنوان، بسام قطوس، ط١، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠١م.
٢١. معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة ، الناشرون عبدالله إبراهيم وآخرون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ١٩٩٦م.
٢٢. سيميائيات الخطاب والصورة، فايزة، ط١، الدار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ٢٠١٢م.

٢٣. معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، ط١، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الجزائر، ٢٠١٠م.

٢٤. لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ن.

٢٥. جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية، دراسة دلالية ومعجم، محمد محمد داوود، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.

٢٦. علم الإشارة: السيميولوجيا، بيبر جيرو، ترجمة منذر عياشي، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق، ١٩٨٨م.

٢٧. دروس في السيميائيات، حنون مبارك، ط١، توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.

٢٨. لغة الجسد، جيمس بورغ، ترجمة أميمة الدكاك، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٥م.

٢٩. ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق فايز محمد، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦م.

٣٠. علم اللسانيات الحديثة، عبد القادر، عبدالجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م.

٣١. الحيوان للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الهلال، بيروت، د.ن.

٣٢. الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، ط٢ دمشق، ١٩٦٧م.

٣٣. انفتاح النص الروائي: النص– السياق– سعيد يقطين، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ١٩٨٩م.

٣٤. طروس، الأدب على الأدب، جيرار جينيت، ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الانماء الحضاري، ط١، ١٩٩٨.

٣٥. السيموطيقا والعنونة، جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، مج٢٥، العدد٣، الكويت، ١٩٩٧م.

٣٦. النحو الوافي – عباس حسن، القاهرة، دار المعارف، ج١، ٢٠٠٩م.

٣٧. آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، عبداللطيف محفوظ، منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨م.

٣٨. العلاقات العامة والاتصال الإنساني، عصام خليل أبو إصبع، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط١، ١٩٩٨م.

٣٩. التواصل – المفاهيم والقنوات، ناصر البعزاتي، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بو حسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ٢٠٠١م.

٤٠. اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة (بحث في النظرية) محمد العبد، ط١، القاهرة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠.

٤١. التواصل غير المنطوق في ديوان الخنساء، دراسة في السيميائية العربية، عفاف بن عمر بن عبدالله العتيق، محلة الدراسات اللغوية، مج١٦، العدد الأول، ٢٠١٤م.

٤٢. السيمياء، بير جيرو، ترجمة أنطوان أبي زيد، ط١، منشورات عوديات، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

٤٣. الزهرة للأصفهاني أبو بكر محمد داوود، تحقيق إبراهيم السامرائي، ج١، ط٢، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٩٥م.

٤٤. سيميائية اللغة، جوزيف كورتيس، ترجمة جمال حضري، ط١ مؤسسة مجد الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٠م.

٤٥. لغة الجسد، المعنى الخفي وراء الحركات والايماءات والتعبيرات المختلفة لبيبرس ترجمة كريم محمد، الحرية للنشر والتوزيع، القاهرة د.ت .

٤٦. السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، لسعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ٢٠١٢م.

٤٧. ترويض الحكاية (بصدد قراءة التراث السردي) لشرف الدين ماجدولين، نشر الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر ، ٢٠٠٧م.

٤٨. الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، فريد الزاهي، إفريقيا، الشرق، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.

٤٩. سيمولوجية الشخصيات السردية – سعيد بنكراد، رواية "الشراع والعاصفة" لحنامينه نموذجاً، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ٢٠٠٣م.

٥٠. مداحل لنظرية اللغة، لويس هيلمسليف ، ترجمة يوسف إسكندر، مراجعة حسن كاظم، الناشر دراسات فكرية، جامعة الكوفة، ٢٠١٨ .

٥١. أوديسا الرمز، دراسات في " الكون السيميائى" سمير الشيخ، دار الرافدين، ط١ ، ٢٠١٨ .

٥٢. من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، إفريقيا الشرق، ط١، ٢٠١٤ .

٥٣. الصورة، المكونات والتأويل، لغي غويتيى، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي ،٢٠١٢.

* * *